الفصل السادس

نظم وعادات غريبة في مجتمعات قديمة

- النظام الدقيق فى الدفن عند «السومريين» .
- التماثيل جزء من العادات والعقيدة فى بلاد اليونان القديمة .
- نظام الحريم ... فى الهند القديمة .
- نظم اجتماعية فى الصين القديمة .
- نظم وعادات غريبة تميز بها «الأتراك» القدماء .
- «الساموراى» السبعة والأربعون .
- ..... ونظم أخرى .

obeikandl.com

obeikandl.com

• النظام الدقيق فى الدفن عند السومريين[1]:

اعتقد السومريون فى حياة ما بعد الموت، إذ اعتادوا دفن الحاكم فى تابوت يوضع فى قَبْوٍ يُبْنَى من الحجر أو الآجر، ويحاط بعدد كبير من رجالات الدولة وخَدَمه... أما الأفراد فكانوا يُلَفُّون فى حصير ويدفنون فى حفرات مستطيلة.

وحرص السومريون على تزويد الميت بحاجاته الشخصية... وهذه كانت توضع بجانب الجثة أو تلف مع الجثة فى الحصير... كما زودوه أيضًا بقارب صغير مملوء بأوان فخارية تحوى أنواعًا شتى من القرابين، إذ اعتقدوا أن الميت سوف يضطر فى رحلته إلى العالم السفلى إلى استخدام قارب مزود بأنواع الأكل.

ومن أهم المقابر المقبرةُ الخاصة بالملك، والمقبرة الخاصة بزوجته، وقد امتلأت كل منهما بأفخر وأثمن الحلى والمجوهرات بجانب الأدوات المصنوعة من الذهب الخالص، برغم عدم وجود الذهب فى بلاد السومريين، فقد كان يُستورَد من الخارج.

---

(١) فى القرن الثالث قبل الميلاد كانت دلتا نهرى دجلة والفرات مسرحًا حضاريا لشعب السومريين الذين كونوا عدداً من دويلات المدن... وإلى هذا الشعب ينسب الكثير من المظاهر الحضارية المتقدمة التى أخذت تزدهر منذ ذلك الحين؛ ولذا يعد عصر حضارة ما بين النهرين، مثل عصر البابليين والآشوريين فيما بعد.

هذا، وقد تكدست فى كل من المقبرتين جثثُ أفراد الحاشية الذين ربما قُتِلُوا عمدًا لينالوا فخر الانضمام إلى ملكهم وزوجته فى الحياة الأخرى.

ومن الغريب أنه اتُّبِعَ نظام دقيق فى ترتيب وضع كل جثة، بحيث يقرب صاحبها أو يبعد عن جثة الملك، طبقًا للوظيفة التى كان يشغلها فى حياته الأولى.

وبالتالى فهناك أنواع شتى من أصحاب الوظائف المختلفة... فمن حرسٍ ملكى تزَيَّنَ كل فرد فيه بخوذته النحاسية، وتسلح بحَرْبته الطويلة... إلى سيدات البلاط وقد اصطحبت كل منهن حليها الفخمة... إلى مغنيات احتفظت كل منهن بآلتها الموسيقية بجانبها... بالإضافة إلى عدد من سائقى العربات قد استلقوا بجانب عرباتهم التى تجرها الثيران والحمير.

* * *

• التماثيل جزء من العادات والعقيدة فى اليونان القديمة.

فى بلاد اليونان القديمة كان هناك اهتمام واضح بصناعة التماثيل لكثيرين، ولا سيما سيدات المجتمع والطبقات الحاكمة فى ذلك الوقت؛ إذ تمثل السيدات وقد اتركزت أجسامهن على الساق اليسرى، فى حين أن الساق اليمنى تتقدم خطوة إلى الأمام.

وتمتاز تماثيل السيدات بالرشاقة والبساطة... والكثير من هذه التماثيل لا يزال يحتفظ باللون الأحمر الفاتح والأزق والأبيض[1].

وكانت هذه التماثيل تعبر عن الحياة اليومية، وكيفية قضاء الأمسيات، فبعضها عبارة عن عرض أزياء لهذا العصر، تظهر فيه خطوط الأزياء ونوع النسيج المستعمل فيها، والمتميز الشفافية والرقة.

وكان الغرض المقصود من هذه التماثيل هو تقديمها نذورًا وقرابين للآلهة... أى أنها خاصة بالمعتقدات والشعائر الدينية. كما قيل: إن هذه التماثيل تؤنس الموتى فى الحياة الآخرة؛ ليحسوا بالراحة والطمأنينة فى وجود أحبائهم معهم.

فضلاً عن أن هذه التماثيل كانت تزين المنازل فى حياتهم تبركاً بها... ثم تنتقل معهم بعد الموت إلى قبورهم[2].

---

(١) انظر كتاب محيط الفنون «الفن اليونانى»: هنرى رياض (بتصرف).

(٢) العلاقة المتبادلة بين فن الأزياء والفنون التشكيلية عند اليونان: د. كفاية سليمان (بتصرف).

ومن هذا نجد أن هذه التماثيل تعطى تصورًا عن تفكير هذا الشعب ونظرته للحياة.

* * *

*** الاهتمام بأنواع الرياضة المختلفة:**

كان اليونانيون القدماء يهتمون بالرياضة والفروسية والأجسام لدرجة كبيرة للغاية، حتى إنهم أنزلوا آلهتهم إلى مستوى البشر، وحولوا تأملاتهم الروحية والذهنية إلى تماثيل فى صورة إنسان مثالى فى جمال جسمه وحُسْن تكوينه.

ولم تكن غايتهم السمو بآلهتهم على مستوى الجمال البشرى، وإنما كانت استمالة الناس إلى العناية بأجسامهم وتهذيبها، والتشبه بأجسام الآلهة.

ومما هو جدير بالذكر أن اليونانيين القدماء لم يستطيعوا أن يفصلوا بين الروح والجسد، وإنما استطاعوا أن يفهموا المثل الدارج عندهم: «إن العقل السليم فى الجسم السليم» وأن يقرنوا القوة والجمال فى الجسم بالكمال والصفاء فى الذهن.

وكانت النساء فى إسبرطة تمارس الرياضة العنيفة كالرجال سواء بسواء، وكانت الأعياد تقام بين حين وآخر احتفالاً بآلهتهم، ويشترك فيها الشعب اليونانى القديم بأسره... وكانوا يتبارون أثناءها فى مختلف أنواع الرياضة ومنها المصارعة، والقفز، والجرى، ورمى القرص، وركوب الخيل، والهوكى.

وكانوا يمنحون الفائز تاجًا من غصن الزيتون رمزًا إلى بطولته، ثم تُصنع له التماثيل، وتنظم فى مدحه الأشعار وتُغَنَّى الأناشيد.

• نظام الحريم:

من النظم الغريبة فى الهند القديمة نظام الحريم Purdah، حيث كان يُعامل النساء على أنهن ممتلكات لأزواجهن.

وقد أدى هذا النظام إلى عزل النساء فى غرف خانقة لا يدخلها الهواء، حيث كانت تغلق النوافذ بمصاريع، حتى لا يتمكن رجل آخر من رؤية الزوجة أو البنات المغلق عليهن.

وقد أصبحت مخاوف الرجال من أن يتعرضن لإغراء العالم الخارجى جزءًا من التكوين الداخلى لهن، لدرجة أن المرأة الهندية القديمة كانت تفاخر بأن عين الشمس لم تطلع على وجهها.

كذلك كانت النساء الصينيات حبيسات مساكنهن فى الأزمنة القديمة، ولكن بدلا من إغلاق الأبواب والنوافذ بالمصاريع، وجد الصينيون حلا أكثر مواءمة، إذ شلوا أقدام البنات بربطهن بإحكام فى سن مبكرة، وذلك بلف شريط طويل من القماش حول القدم بحيث لا تظهر الأطراف، ثم تقيد القدم بكاملها بإحكام، فتتوقف الدورة الدموية ويتأخر النمو، وبالتالى يصعب التحرك والمشى بشكل ملحوظ.

والغريب فى الأمر أن الصينيين والصينيات على السواء كانوا يعدون تلك العملية من الأمور الجميلة المحببة إلى نفوسهم، حيث كانت الأقدام المقيدة

بشكل جيد فى حجم حذاء طوله ثلاث بوصات يشار إليها بإعجاب على أنها «زنابق ذهبية» رائعة!

وتجدر الإشارة أن المبدأ الكامن هنا يكاد يكون هو نفسه المبدأ الكامن فى أسلوب الأحذية العالية الكعوب فى الغرب فى كونها تؤكد جاذبية النساء الجنسية. ويلاحظ أن ربط القدم من التقاليد النادرة التى لم يأخذها اليابانيون عن الصينيين، غير أن اليابانيين كانوا يفرضون على زوجاتهم(١) نوعاً من «الإقامة الجبرية» فى غرف المنزل الخلفية، حيث كان الخدم يشغلون الغرف الأمامية(٢).

* * *

* الضرب عنوان المحبة!

عند القبائل السلافية.. كانت المرأة تشعر بالهوان إذا لم يضربها زوجها.

وفى بعض مناطق «هنغاريا» الريفية.. لا تتأكد النساء من حب أزواجهن إلا إذا ضربوهن وصفعوهن.

ومثل ذلك عند نساء بعض المناطق فى إيطاليا، فالمرأة لا ترى فى ضرب زوجها هواناً إذا كان ضربه بيده، فى حين تعده هواناً لها إذا ضربها بعصاً أو حبل، أو ما شابه ذلك؛ لأن يده هى الدالة على قوته، وليس العصا أو الحبل(٣).

---

(١) الكلمة اليابانية المهذبة المعبرة عن الزوجة Okusama تعنى «ربة الخدر».

(٢) الغرب والعالم: الجزء الأول «تاريخ الحضارة»: **كافين** رايلى ـ ترجمة د. عبد الوهاب المسيرى (بتصرف).

(٣) يروى أن قد حدث أن امرأة قروية خاصمت زوجها لأنه ضربها بحبل غليظ فأدماها، وكان جواب الزوج للقاضى أن من عادته أن يضربها أشد من ذلك.
فقالت للقاضى: نعم إنه كان يضربنى بيده فأركن له، ولكن أرفض أن يضربنى بشىء آخر.

وكان من عادة العرب الأقدمين أن الرجل كان يضرب امرأته ليغضبها ثم يجامعها، لاعتقادهم أن من يفعل ذلك تلد امرأته ولدًا نجيبًا(١).

* * *

*** نظم غريبة فى القرون الوسطى:**

ـ كانت الحيوانات تُحاكَم فى القرون الوسطى على ما ترتكبه من أخطاء، وكانت إذا حُكِمَ عليها بالإعدام أُلْبِسَتْ ملابس شبيهة بملابس الرجال أو النساء فترة من الوقت حتى ينفذ فيها الحكم.

ولكنها كما كانت تُعاقب فإنها كانت تُكافأ... ويروى أن إوزة كانت سببًا فى إنقاذ روما من هلاك محقق إذ أخذت تصيح قبيل وقوع الخطر فتنبهت الناس إليه.

ومكافأة للإوزة على ذلك ظلوا سنوات طويلة يقيمون لها حفل تكريم... وكانوا فى كل حفل «يصلبون» كلباً انتقاماً من «أجداده» الذين كان من واجبهم أن يقوموا بمهمة التنبيه بدلا من الإوزة!

* * *

ـ وفى القرون الوسطى كانت الفتيات إذا طال انتظارهن لفارس أحلامهن أو أخفقن فى استمالة شاب يحببنه، تسللن من بيوتهن ليلا إلى دكاكين تعد التمائم والوصفات؛ لاجتذاب القلوب وشرائها بأغلى الأثمان.

وقد ذاع ـ حينئذ ـ أن رجلاً يبيع مسحوقًا إذا أُضيف شىء منه إلى مشروب يتناوله الشاب أو الشابة استجاب كلاهما إلى دعوة العشق.

(١) يرى العالم الاجتماعى «هافيلوك أليس» أن الإعجاب بالرجل القوى مرتبط بقدرته الجنسية، وأن القوة الجسمانية دليل عليها، فلو أن المرأة خُيرت بين رجل فى جمال «فينوس» إلهة الجمال وبين رجل فى قوة «هرقل» إله القوة لاختارت الأخير.

. . . وفى بعض جزر الهند الشرقية كانت تستخلص غدد التماسيح وتطبخ فى زيت جوز الهند مع بعض الأعشاب البحرية، ثم يُضاف بعض هذا العقار إلى طعام المعشوق فيقع مستسلمًا فى شباك العاشق الولهان!

ومن الوصفات التى كانت شائعة فى مجاهل أستراليا. . السحالى الصغيرة التى تأوى إلى الأحجار القريبة من الينابيع التى يتردد عليها النساء للاستحمام. . . . ويقال إن هذه السحالى الصغيرة تجمع الشعر المتساقط من النساء وتضعه فى جحورها، فتُؤخذ السحالى وتقتل، ثم تجفف فى حرارة الشمس ويصلى عليها رجل طاعن فى السن، وتوضع فى علبة صغيرة، تكفل للشاب إذا علقها فى صدره أن يتهافت عليه بنات الحى. . . فإذا وضع قطعة صغيرة من السحلية على شعر الفتاة المعشوقة أو يدها تدلهت فى حبه!

* * *

*** عادة اقتناء القطط:**

اعتقد الأوربيون فى العصور الوسطى أن القطط صحبتها سعيدة، فصاروا يدفنونها فى أساسات المنازل الجديدة كى تبعد الفئران والطاعون عن المنزل.

وقد ظلت هذه العادة منتشرة فى إنجلترا حتى نهاية القرن التاسع عشر . . . . . وذلك بعد أن وصلت محاربة القطط ذروتها فى أواخر العصور الوسطى، إذ ظنوا أن الشيطان يسكنها، فصاروا يضعونها فى أقفاص ويشوونها على النار حتى تموت.

ومما تجدر الإشارة إليه أن محاربة الأوربيين للقطط كانت نتيجة خوفهم منها، وجهلهم لكيفية معرفتها بهبوب العواصف قبل وقوعها. وقد جاء الحقد عليها فى نفس الفترة التى حوربت فيها المرأة، وبما أن القط ظل دومًا حيوان

المرأة المفضل فإن الارتباط بينهما بلغ حد اتهام بعض النساء بممارسة الشعوذة[1] لمجرد امتلاكهن قطا أليفا .

وقد بدأ التحول فى منتصف القرن الثامن عشر، واستمر التطور حتى عادت القطط حيوانا منزليا مدللاً فى القرن التاسع عشر، وصارت المسابقات تُقام لاختيار أجمل القطط فى عام ١٨٧١م[2].

وفى الصين لم تكن القطط مجرد حيوانات أليفة، بل كانت ثروة مادية مهمة، إذ استعملت لحراسة شرانق الحرير من القوارض... ولعل هذه الأهمية هى التى دفعتهم إلى ربط القطط البالغة بالسلاسل.

وهى عادة انتقلت إلى اليابان عند وصول القطط إليها، فقد اهتم اليابانيون بها، وأطلقوا عليها اسم «تاما» ـ ويعنى الجوهرة ـ وكان اقتناؤها دليل الأرستقراطية[3].

أما فى «سيام» والتى تعرف حالياً بـ «تايلاند» فقد ظهرت دواوين شعر عن أنواع القطط المختلفة... ومع كل قصيدة رسم للنوع المقصود.

---

(١) من القصص التى تروى فى هذا المجال أنهم اتهموا امرأة تملك قطا بأنها حرضته على إثارة عاصفة لإغراق مركب أثناء رحلة إلى الدانمارك.

(٢) ومن الطرائف التى تروى عن ذلك أنه كان فى مدينة «البندقية» ـ التى اشتهرت حينئذ بحبها للقطط بعد أن نقلت إليها السفن التركية أول قطط ذات شعر طويل تصل إلى أوربا ـ قط أبيض يدعى «نينا» حظى باحترام أكبر الشخصيات، فقد ظل هذا القط يعيش سنوات متنقلاً بين مقهى حيث يحصل على طعامه وبين مبنى حفظ السجلات، وسرعان ما ساد الاعتقاد بأنه قط «عالم» يستوعب ما فى الكتب والسجلات أثناء نومه بينها، فتوافد الكبراء والمشاهير لزيارته والتعرف عليه. وقد افتتح المقهى سجل تشريفات القط «نينا»، وكان بين الموقعين فيه قيصر روسيا، وإمبراطور الحبشة، والموسيقار فيردى الذى لم يكتف بتوقيع اسمه، بل سجل أيضًا بعض النوتات من أوبرا لا ترافياتا.

(٣) مجلة الشرق الأوسط فى عددها الصادر فى ١/٩/١٩٩٢ (بتصرف).

وقد أحب التايلانديون أكثر ما أحبوا النوع المعروف بالكوارت، ووصفوه بأنه ذو شعر أملس، نهايته كالسحاب، وطرفه كالفضة، أما عيناه فتلمعان كقطرات الندى على بتلات زهرة «اللوتس».

وقد اعتقدوا بقدرة هذا النوع على التأثير على الأحوال الجوية، نظرًا لقرب لونه من لون الغيوم.

وكان الزُّرَّاع ينطلقون فى نهاية فصل الجفاف فى موكب حاملين هذه القطط، ساكبين الماء عليها لاستجلاب المطر وتأمين خصوبة الأرض. وبما أن لونها الفضى كان يرمز إلى الازدهار والرفاهية، فإنهم كانوا يقدمونها كهدايا للعرائس والشخصيات المرموقة.

كذلك ظهر فى «تايلاند» نوع من القطط المعقوفة الذيل، فحكيت حولها حكاية أسطورية، مفادها أن القط عقد ذيله كى يحفظ خواتم النبيلات من الضياع أثناء استحمامهن، حيث كن يضعن الخاتم فى ذيل القط قبل دخول الحمام، فتحول عقدة الذيل دون سقوطه[1].

* * *

(١) مجلة الشرق الأوسط فى عددها الصادر فى ٨/ ٩/ ١٩٩٢ (بتصرف).

• نظم اجتماعية فى الصين القديمة[1]:

الميلاد: كان الصينيون ـ فى العصور القديمة ـ إذا ولد لأحدهم طفل لا يحتفل بمولده إلا بعد مرور مائة يوم... وفى يوم ميلاده يبعثون فى طلب أحد المنجمين ليكشف طالع المولود، ومن أى برج هو؟ وما هو مزاجه أو طبيعته بين عناصر الطبيعة الخمسة؟ هل هو هوائى؟... أو مائى؟.... أو ترابى؟.... أو نارى؟.... أو خشبى؟.

وهكذا كانوا يقسمون عناصر الطبيعة إلى خمسة أقسام، لا يخرج مزاج أحد من البشر عنها....

ويجتمع مجلس الأسرة ليختار اسماً للمولود، والكلمة الأخيرة ليست للأب أو الأم، ولكن للجد والجدة ـ جد وجدة المولود لأبيه بالطبع. وإذا كانوا يخشون عليه من الحسد فإنهم يطلقون عليه إلى جانب اسمه الرسمى الذى يمتاز بالمعنى الجميل اسمًا آخر ليس فيه ما يثير، وأحيانًا يكون اسمًا سخيفًا ... وفى بعض الأماكن فى الصين القديمة كانوا يسمون الطفل حسب وزنه، فإذا كان وزنه عند مولده سبعة أرطال مثلاً سموه «ذو السبعة أرطال»، أما سر إرجاء الاحتفال بمولد الطفل إلى ما بعد مرور مائة يوم فيبدو أن ذلك لاتقاء الحسد، أو محافظة على الطفل من كثرة زيارات المهنئين، أو لضمان أنه أصبح يحتمل الحياة ولا خوف عليه من الموت، أو أنهم كانوا يعتقدون أن للرقم مائة دلالة خاصة.

---

(١) مجلة الهلال: عدد سبتمبر ١٩٦٥ (بتصرف).

وفى الاحتفال بمولد الطفل يدعى الأصدقاء إلى العشاء، وتوقد الشموع الحمراء، ويحرق البخور وسط أنغام الموسيقى، وأصوات الغناء والشعر أحيانًا.

السلطة: رأس الأسرة هو أكبرها سنًا... وهو الذى يصدر الأوامر والنواهى، ويمنح البركات... وتكون عنده الشفاعة، وهو يمنح العفو، وله الكلمة الأخيرة فى كل شأن.

وعندما يأتى أحد أطفال الأسرة أمرًا منكرًا، فإن الجد الأكبر أو الجدة توقع عليه العقاب، وتغضب عليه، فتذهب أم الطفل إلى الجدة تسترحمها وترجو منها الصفح..

*** الحب والزواج:**

أما عن الحب فهو ممنوع... وهذا هو حكم المجتمع القديم فى الصين، مجتمع الإقطاع الذى دام أكثر من ألفى عام، إذ لم تغير الديانات الطاوية والكونفوشيوسية، والبوذية واللاماوية والمسيحية والإسلام أى شىء بالنسبة لقضية الحب... فالحب ممنوع.

إذن كيف يتم الزواج؟..

عندما يبلغ أحد الأطفال ـ من العامة ـ الخامسة أو السادسة من عمره، فإن أبويه يختاران له عروسًا، وإلى هنا قد يبدو الأمر عاديا، ولكن الغريب فى الأمر هو أن العروس يجب أن تكون أكبر من عريسها بعشر سنوات أو نحو ذلك، وتتمتع بصحة جيدة، وسليمة البنية، ولا أثر لأى مرض بعينيها أو بأسنانها... والهدف من ذلك هو أن تخدم العروس أهل عريسها الطفل حتى يكبر ويستطيع أن يتزوجها.

وعلى العروس بعد ذلك أن تدلل زوجها وتداعبه، وربما تقص عليه الحكايات حتى ينام. وبعد أن تفرغ من أعمالها المنزلية تأوى إلى فراشها بجوار زوجها الذى غالبًا ما يترك رقعة مستديرة مبللة فى فراشه عند الصباح[1].

وعندما يكبر الزوج الطفل فإنه عادة يشعر أن زوجته هذه ليست إلا مربية أو أختاً كبرى... فإذا اتسع رزقه تزوج بأخرى يكون اختيارها من شأنه هو...

وإذا أصبح من أهل الثراء، فإنه يضيف إلى بيته زوجات أخريات أو محظيات[2]، ولكن تبقى دائمًا للزوجة الأولى مكانة خاصة.

والمحظية فى الغالب تمتاز بصفات ليست للزوجة، فقد تكون المحظية سيدة مجلس... أى متكلمة لبقة، تردد الأشعار، أو تحكى القصص القديمة، أو تعزف الموسيقى، أو تغنى.

وعندها يجد الرجل راحة نفسية، فهى دائمًا تعمل على راحته... وهو غير مطالب حيالها بأى التزام غير الإعالة، وأخيرًا فعندها تنتهى الأسرار.

ويبدو لنا أن فتيات «الجيشا» فى اليابان إنما هن امتداد لتلك التقاليد القديمة فى الصين.

*** عذاب الرشاقة:**

تكسر عظام قدمى الفتاة الصغيرة وتُربَط بعد تصغيرها على النحو المراد

(١) يلاحظ أن هذا النوع من التقاليد لم يعد له وجود الآن.

(٢) المحظيات هنا لسن من نوع بنات الليل، فالعلاقة بين الرجل ومحظيته يمكن أن تكون نفس العلاقة التى بينه وبين زوجته بلا حدود.

لحجم القدم. والسبب فى ذلك أن صغر حجم القدم ـ كما يعتقدون ـ يجعل مشية المرأة أكثر رشاقة.

وكان بعضهم يعتقد أن هذا التصرف يحد من حركة المرأة، فلا يمكن أن تذهب بعيدًا أو تهرب.

وعلى أيه حال فهى إحدى العادات التى تخلت عنها الصين الحديثة، وعادت أقدام النساء إلى حجمها الطبيعى.

*** مراسم العرس:**

بعد أن تمضى بضعة أشهر يتبادل فيها أهل العروسين الزيارات والهدايا يتحدد يوم الزفاف، بعد أن يتم استقراء الطالع، واستخارة الآلهة، ومشورة ذوى الرأى والحصافة...

ويجب أن يكون يوم الزفاف طالعه سعد حتى لا يمرض فيه أحد، ولا تنكسر فيه كأس، ولا تتبعثر فيه حفنة من الأرز... و.. و... و... وقائمة طويلة من المحظورات التى تجلب النحس والشؤم.

.... وداخل محفة مسكوة بالقماش الأحمر المزركش تجلس العروس، ويحمل المحفة أربعة رجال فى ملابس مزدانة بزخارف ذت ألوان مختلفة... ويتقدم المحفة بمسافة قصيرة فرقة موسيقية بالمزمار والطبل والناى والربابة والصاجات النحاسية.

وخلف المحفة صف من الصناديق الخشبية المزخرفة محملة على عربات تجرها خيل، أو تحمل على أكتاف الحمالين... ويطول الصف أو يقصر حسب الوضع الاجتماعى.

وعند بيت العريس يجتمع الأطفال والفتيان والفتيات فى انتظار وصول موكب العروس. وعندما تتناهى إلى أسماعهم موسيقى الموكب يهلل الأطفال ويحدثون ضجيجًا تخرج على إثره إحدى العجائز لتلعنهم وهى تمزح، وربما تقول كلامًا تستحى منه الفتيات!

وفى الداخل يكون كل شىء قد تم إعداده: منضدة فى صدر المكان يغطيها مفرش أحمر جميل، وعليها شمعدانات من النحاس الأصفر، بها شموع حمراء وعيدان مشتعلة من البخور المعطر، وكئوس وطاسات وتمثال لبوذا... وأمام المنضدة يقف موثق العقود مزهواً، فهو رجل الساعة، ويدعو العروسين للمثول بين يديه... العروس فى ملابسها الحريرية الحمراء الموشاة بتظريز على شكل زهور وطيور وفراشات، وعلى رأسها خمار يغطى وجهها، وتقف فى حياء مطأطئة الرأس... هكذا يجب أن تفعل... والعريس إلى جوارها فى ملابسه الحمراء والسوداء.

ويجرى موثق العقود مراسيم الزواج، ويطلب من العروسين ترديد بعض العبارات، فيرددها العريس بصوت مسموع، وترددها العروس بصوت لا يكاد يسمع، ثم يطلب منهما الركوع فيركعان، ثم القيام فيقومان، وبعدها يسمح للعريس بأن يرفع النقاب عن وجه عروسه التى يجب أن تستحى، ثم يناولهما كأسًا من الخمر ليشربا منها: العريس أولاً، ثم العروس... وبعد العشاء يأتى المشهد الختامى، فبين صياح الحاضرين وتهليلهم يتناول العريس خمار العروس، وتمسك هى بالطرف الآخر، ويجذبها برفق إلى داخل إحدى الغرف، وتتبعه فى خجل..!

الموت: وللموت فى الصين القديمة تقاليد أيضًا: فالملابس البيضاء

للحداد، وفى الريف يعلق الرجل حول رقبته حبلاً مجدولاً من العشب كعلامة على الحزن لموت أحد أقربائه المقربين.

والفلاح يدفن أباه فى حقله... وبعد مرور وقت كافٍ يعود إلى قبر أبيه ويجمع العظام ويحفظها فى قدر كبيرة يحكم سدادها ويدفنها مرة أخرى.

وفى الأعياد يعدون مائدة خاصة عليها أطعمة مختلفة لذكرى الأسلاف ويصلون لها، ويطلبون منها البركات.

والأباطرة فى الصين كانوا يفعلون ما فعله الفراعنة المصريون القدماء... فقد كانوا يؤمنون بالعودة إلى الحياة مرة ثانية، وربما فى صورة أخرى؛ ولذا كانوا يبنون مقابر عظيمة ومحكمة يحتفظون فيها بأشياء كثيرة من طعام وملبس وخمر وزيت وحلى وجواهر وأحجار كريمة استعدادًا للعودة.

والصينيون القدماء كانوا يؤمنون بالتقمص، والأشباح، والحياة الثانية، كما يؤمنون أن بعض الناس استطاعوا أن يكسبوا صفة الخلود.

التحية:

قديمًا... عندما كان يلتقى اثنان من الصينيين، فإن كُلاً منهما يجمع قبضة يده اليسرى ويغطيها باليمنى ويرفعهما إلى أعلى ثم يخفضهما إلى أسفل مع انحناءة خفيفة بجسمه... وهذه هى التحية التقليدية.

وإذا كانت التحية عابرة بين اثنين فهى غالباً مختصرة، ومجرد إيماءة صغيرة تكفى... وعندما يكون اللقاء فى وقت قريب من وقت الطعام فالتحية التقليدية ـ التى مازالت جارية حتى اليوم ـ هى: «هل أكلت؟» فتكون الإجابة التقليدية: «أكلت».

وفى هذه التحية معنى الدعوة إلى الطعام، وفيها أيضًا معنى الرغبة فى الاطمئنان على حال الآخر. . . . ويظهر أن مرجع ذلك يعود إلى عصور بعيدة، حيث كان الحصول على طعام يعنى انتظام الحياة.

والتحية بينهما يعقبها حديث تقليدى. . . كل منهما يجامل الآخر بعبارات رقيقة، ويضفى عليه نعوتًا طيبة، والآخر يجيب بأدب جم وتواضع شديد، وينفى عن نفسه كل الصفات الطيبة.

آداب المائدة:

المائدة إمَّا صغيرة مربعة أو كبيرة مستديرة. وفى العادة تكون البداية قدحًا من الشاى الأخضر الذى يقدم دائماً بدون سكر. . . ثم يأتى دور الخمر، وبعض أنواع الخمر لا يشرب إلا دافئًا، ومع الخمر تأتى الأطباق الباردة فاتحة الشهية، ويوضع طبق كبير فى الوسط يضم أصنافًا مختلفة، ما بين جذور البامبو، وأعشاب البحر، والسمك المملح، والجمبرى المسلوق، وزعانف القرش، وجلد الثور، وصدور الدجاج، وغير ذلك من أصناف يضمها هذا الطبق الكبير الذى تمتد إليه عيدان الأكل لتلتقط ما يحلو لها.

وأثناء الطعام يحث صاحب الدعوة من حين لآخر ضيوفه على الأكل، وغالبًا ما يحدث أن يكون بين الضيوف غريب من مقاطعة أخرى.

وتأتى أطباق العشاء الواحد وراء الآخر. . . وآخر شىء يقدم هو الحساء، وبعده الشاى الأخضر مرة أخرى.

والطعام الصينى مهما كان نوعه فلا بد أن يقطع قطعًا صغيرة تستطيع عيدان الأكل أن تلتقطها، وإلى جانب هذه العيدان تستعمل ملاعق صغيرة

من الصينى للحساء... ولا يستعمل الصينيون الأطباق الكبيرة، ولكنهم يستعملون الطاسات الصغيرة من الصينى المزخرف.

ومن آداب المائدة ألاَّ يرفع أحدهم طاسته إلى فمه، ولكن ليس على المتجشئ حرج. والماء البارد غير مستحب ـ لا على المائدة أو بعيدًا عنها ـ ولذا فهم يشربون الماء المغلى بلذة غريبة.

*** هوايات غريبة:**

كانت تربية الطيور من الهوايات المحببة لدى الصينيين قديمًا. وأشهر الطيور لديهم طائر «لياوجه» أو «باجه» وهو يفوق الببغاء كثيرًا فى الكلام بصوت أقرب إلى صوت البشر. وعندما يخرج أحد الهواة إلى النزهة فإنه يحمل قفصه معه حيث تسعد نفسه لذلك.

وهناك هواية أخرى أغرب من تلك، وهى تتعلق بالجندب أو صرصار الغيط الأسود الذى ينتشر فى الحقول، فقد كانوا يدربونه على العراك، حيث كان كل هاوٍ يحتفظ بصراصيره داخل علبة أسطوانية من الخشب لها غطاء مخرم من العاج... ويلتقى الهواة، وتجرى المباريات بين اثنين، وتنتهى بالطبع بهزيمة أحد الأطراف وانتصار الآخر.

وهناك أيضًا هواية ثالثة أغرب من هذه وتلك: ففى أول الصيف من كل عام ينتشر نوع من الجراد له أجنحة قصيرة، فيجمعونه من الحقول، ويضعون كل حشرة منها فى سلة صغيرة تعلق بخيط فى النافذة، ومع الغروب تبدأ هذه الجنادب فى إصدار صرير حاد ومتقطع يقطع سكون الليل، ويسعدون به.

*** أكبر الأعياد:**

عندما تذوب ثلوج الشتاء وتظهر براعم المشمش والخوخ على الأغصان

الجافة، يحتفل الصينيون بعيد رأس السنة الصينية الجديدة... وهو أكبر الأعياد عندهم، فتقام الأسواق، وتجتمع فرق الموسيقى والتمثيل، والألعاب البهلوانية، وتقام المهرجانات.

ويقضى الناس نهارهم فى الزيارات، أو فى الأسواق والحانات ومشارب الشاى... وبعد الظهر يبدأ العرض، ويظهر تنين هائل من الورق الملون يحركه بعض الرجال من الداخل، ويرقص التنين ويتلوى على نغم المزمار والطبول.

... وفى المساء ـ وعلى ضفاف الأنهار يجتمع الناس لمشاهدة سباق القوارب التى تزدان بمصابيح ذات أشكال وألوان مختلفة... وتستمر الاحتفالات أربعة عشر يومًا يخرج الناس فيها بملابس جديدة، ويزينون البيوت بشرائط من الورق الأحمر كتبت عليها بعض عبارات التهنئة والتفاؤل بالخير، كما يلصقون الورق المقصوص على النوافذ.

*** قواعد الآداب العامة فى الصين قديماً:**

كان «الإتيكيت»... أى قواعد الذوق والأدب فى التقاليد الصينية القديمة تمنع منعًا باتا الطبيب من رؤية أى جزء من جسد المريض عاريًا، وأكثر من هذا، كان يعد أمرًا معيبًا للغاية أن تقوم المرأة بذكر الجزء المريض من جسدها للطبيب.

ولا شك أن تقاليد كهذه تعد عائقًا كبيرًا أمام أداء الطبيب لعمله، بدءًا من التشخيص وانتهاءً بالعلاج، وخاصة أن مهنة التطبيب كانت مقصورة على الرجال.

وقد تفتق ذهن الصينيين عن حل غاية فى الطرافة، يحفظ للتقاليد قيمتها، ويمكن الطبيب من تأدية عمله بإتقان: ذلك هو صناعة نماذج دقيقة مجسمة لكل جزء من أجزاء الجسم بكافة التفاصيل التشريحية الممكنة، ويحمل الطبيب معه دائمًا عند عيادته لمرضاه هذه النماذج العاجية[1] أو يحتفظ بها فى العيادة حين يستقبل مرضاه فيها.. فإذا ذهب مثلا للكشف على امرأة، ما عليها إلا أن تمد يدها من خلف ستار يحجبها عنه، وتلمس بيدها الجزء المصاب من جسدها على نموذج العاج الذى يحمله الطبيب ليستكمل سائر خطوات عملية التشخيص والعلاج، مستعينًا بالنموذج العاجي[2].

* * *

* قيمة العاج فى الصين قديماً:

- فى الصين القديمة كانت للعاج دائمًا قيمة كبيرة ترتفع به إلى مرتبة الأحجار الكريمة[3] كالياقوت، والمرجان، وحتى الماس. فقد كان رمزًا يستدل به على مكانة الشخص.

(١) فى تلك الأزمنة، تذكر لنا كتب التاريخ أنه لم يكن هناك مجال من مجالات الحياة لم يستخدم الصينيون فيه العاج لسبب أو لآخر، ومن أطرف هذه الأمثلة استخدام العاج فى الكشف الطبى كما أوضحت.

(٢) مجلة الشرق الأوسط الصادرة على ٣١/ ٧/ ١٩٩١ (بتصرف).

(٣) تحفظ لنا المخطوطات التاريخية وصفًا يبين المكانة التى احتلها العاج فى القرون القديمة فى الصين. وهذا هو ما جاء فى إحدى الرسائل الأدبية:

«... كانت النساء يقمن بوضع أياديهن ذات الأصابع الدقيقة فى صناديقهن الصغيرة ليستخرجن أدوات التجميل وقارورات العطور المصنوعة كلها من العاج... أما النبلاء فقد اعتادوا أن يحملوا معهم أينما ذهبوا عصى الأكل الدقيقة المصنوعة من العاج، وتلك وحدها تعكس مكانة الضيف على مائدة الطعام. وبالمثل فإن عِلْيَةَ القوم لا يمكن أن يعلقوا قبعاتهم أو معاطفهم إلا على مشاجب من العاج.

وغير ذلك الكثير من المقتنيات ذات الاستخدام الشخصى التى كان يحرص الأثرياء على أن تكون مقابضها مصنوعة من العاج، أو على الأقل محلاة بقطع عاجية دقيقة...»

وفى القرن الأول الميلادى استخدم الصينيون العاج كنوع من النقود، إذ كان يتم تسديد الضرائب بواسطتها، وكانت تحفظ كمادة خام، أو أحيانًا فى شكل مشغولات عاجيَّة، كما كان تقديم الهدايا إلى الامبراطور تقرباً أو شكراً علي شكل تحف من العاج؛ ولذا فإن العاج لم يكن يتوافر بكميات كبيرة إلا لدى الأسر الأرستقراطية.

ومن المعروف أن المصدر الأكبر للعاج هو أنياب الفيل. وقد عاشت الفيلة حقبة من الزمان فى الصين، إلى أن تناقصت أعدادها حتى اختفت تمامًا، مما جعل الصينيين يفكرون فى حل للحصول على هذه المادة المتغلغلة فى الكثير من تفاصيل حياة الأثرياء. فكان التجار يقومون بتمويل رحلات خاصة إلى بلدان يتوافر فيها العاج مثل بورما والهند، وحتى إفريقيا التى يعد العاج المجلوب منها أعلى درجة من أى عاج آخر.

هذا، وتختلف قيمة العاج أيضًا تبعاً لشرط آخر، فكان التاجر يحرص على معرفة الكيفية التى مات بها الفيل قبل أن تنزع أنيابه، فمثلا يعد العاج لفيل قُتل حديثًا أعلى قيمة من سواه، أما إذا كان الفيل قد مات ميتة طبيعية، فمن المهم معرفة كم من الموقت مضى على موته حتى يمكن تقدير درجة جودة العاج.

وهناك نوع آخر من العاج استخدمه الصينيون منذ القدم، وهو ذلك المستخرج من أنياب حيوان «الفظ»(١)؛ ولذا فمن أكثر ما اشتهرت به الصين الحرف والصناعات التى يدخل فيها العاج.

*** الوسائد فى المجتمعات القديمة:**

من التقاليد الصينية القديمة صناعة سطح الوسادة الذى يوضع عليه الرأس من الخزف أو الصينى، فيما تصنع قاعدتها من خشب الأرز.

(١) هو حيوان من فصيلة الثدييات البحرية، وشديد الشبه بحيوان الفقمة البحرى، إلا أن الفارق الرئيسى بينهما هو الأنياب، غير أن عاج «الفظ» ليس فى قيمة عاج الفيل.

وكانت الوسادة الصينية الخزفية تزين عادة ببقع بنية اللون، أو يصبغ خزفها باللون الأخضر بجميع درجاته من القاتم جداً حتى الفاتح.

هذا، وقد كان الحرفيون الصينيون يتوارثون فن صناعة وتزيين الوسائد أبًا عن جد(١).

وغالبًا ما كانوا يعمدون إلى تزيين سطحها بمناظر يتمم الواحد منها الآخر، وعلى الأخص بزهرة «اللوتس» رمز الخلود... وزهرة «الفاوانيا» رمز الربيع... أو بالعصافير والمناظر الطبيعية الهادئة.

كذلك نجح الفنانون الصينيون فى استعمال الخط لتزيين الوسائد الخزفية، فكانوا يدهنون بالريشة أبياتًا شعرية عن النوم أو الأحلام السعيدة، ثم تطور الأمر حتى صارت الوسائد تصنع مثلاً على شكل «زهرة» أو «عصفور» أو «نمر نائم» يكون ظهره المقعر قليلاً هو مكان وضع الرأس(٢).

ومن الجدير بالإشارة أن الوسائد اليابانية القديمة لا تختلف عن الصينية، فهى أيضًا كانت تصنع من الخزف على شكل قطعة واحدة مسطحة لا فراغ أو أعمدة فيها... وتكون قاعدتها أصغر قليلا من سطحها المستدير الذى يوضع عليه الرأس.

---

(١) قد عثر المنقبون عن الآثار فى قبر يعود إلى القرن الرابع قبل الميلاد على وسادة من حرير تشير جودة صنعها إلى أنها تطورت من أنواع أكثر بدائية.

كما عثر على وسادتين من «البرونز» الذهبى اللون فى قبر يعود تاريخه إلى القرن الثانى قبل الميلاد... وهما وسادتان مستديرتان رسمت عليهما حيوانات خرافية وظيفتها طرد الأحلام المزعجة، وفيهما فتحات توضع فيها العطور.

(٢) مجلة الشرق الأوسط فى عددها الصادر فى ٤/٩/١٩٩١ (بتصرف).

وفى مصر الفرعونية القديمة[1] كانت مساند الرأس تُصنع من الخشب الطرى للأغنياء فقط، أما العامة فلم يكن بإمكانهم دفع أثمان الأَسِرَّة أو المساند الخشبية، حيث كانوا ينامون على الأرض ويسندون رءوسهم على مساند أو وسائد مصنوعة من الحجارة الجيرية.

أما بالنسبة للأثرياء وطبقة الملوك والأمراء، فقد صنعت المساند الفرعونية من «العاج»، مثل وسادة الفرعون «بيبى»، أو من «المرمر»، وكان ذلك الأكثر شيوعًا بين الأثرياء.

وعادة تكون الوسادة الفرعونية من قاعدة وسطح يصل بينهما عمود أو اثنان... ثم تطور الشكل فصارت مساند الرأس الخشبية والحجرية تصنع على شكل كرسى يمكن طيُّه.

وكانت هذه الوسائد تزين بالكثير من الزخارف، فقد جرت العادة على نقش الرسوم[2] والكتابات على الوسائد لحماية الرأس من الكوابيس المزعجة والحشرات السامة[3].

والجدير بالإشارة أن الفراعنة قد أعطوا الوسادة أهمية كبيرة، إذ كانوا يرون فى مسند الرأس وسيلة لضمان استيقاظ الإنسان فى حالة طيبة إذا بقى الرأس مرفوعًا عن مستوى الأرض.

---

(١) لم يعرف تاريخ محدد لظهور الوسادة فى هذه الحقبة من الزمن، وإن عثر على بقايا منها فى قبرين يعودان إلى تلك الحقبة، ولكن لوحظ ظهور وسائد الرأس بكثرة فى القبور العائدة إلى السلالة الثالثة.

(٢) كان ذلك فى فترة المملكة الحديثة (١٣٠٠ ق.م).

(٣) ظلت مساند الرأس الفرعونية خالية من رسوم وصور الأشخاص حتى حوالى ٧٣٠ ق.م حين وقعت مصر تحت تأثير الحضارة الهيلينية اليونانية.

أما بالنسبة للوسادة الإفريقية القديمة فقد انتشرت انشارًا واسعًا فى إفريقيا قديمًا، حتى إنها كانت قطعة الأثاث الوحيدة التى كانت يقتنيها البدو الرُّحَّل فى الصومال وشمال كينيا(١).

وكان يشترط فى الوسائد أن تكون سهلة الحمل فى الصحراء، فجاءت بدون قاعدة، ولكنها كانت ذات عمودين طويلين يمكن غرزهما فى الرمال لتثبيتهما. وكانت هذه الوسائد تُحمل على الكتف أو فى اليد، أو تثبت فى الحزام فتبقى مع صاحبها ليل نهار.

وكان الحِرَفى يعمد أحيانًا إلى حفر صورة عقرب على الجزء الخارجى من سطحها؛ لأن العقرب هو رمز الحياة عندهم، وهو فى الوقت نفسه أخطر الحشرات التى قد تؤذى ساكن الصحراء.

أما فى المناطق الإفريقية الأخرى مثل «زيمبابوى» فقد اشتهر أهلها بتزيين أدوات الاستعمال اليومى، ومنها الوسائد التى حظيت بزخارف كثيرة حتى تحولت إلى تحف فنية ما زال بعضها مستعملاً فى عدد من القبائل الإفريقية.

ومن الغريب أن بعض الشعوب الإفريقية لا تنظر للوسادة على كونها تمثل حاجة ضرورية عند النوم، أو كمسند للظهر أو الذراع أيضًا أثناء النهار، وإنما وجدت فى الوسادة أو المساند عمومًا فوائد أخرى، منها مثلاً ما شاع فى قبيلة «لوبا» بزائير، فقد شاع استعمال وسادة الرأس لقراءة الطالع، بأن يصنع العراف مواد معينة على سطحها ثم يحركها، ويفسر الذبذبات الناجمة وتحرك المواد حسبما شاء!!

---

(١) يلاحظ أنه قد جرت العادة على أن تكون الوسائد فى الصومال وشمال كينيا قطعة خشب بسيطة ملساء خالية من الزينة.

والأغرب من ذلك أن بعض القبائل فى المنطقة الجنوبية الغربية من غينيا الجديدة، استعملوا الجماجم كمساند للرءُوس، حيث كانوا يعمدون أحيانًا إلى قطع رءوس أجدادهم أو أعدائهم، ثم تنظيفها وتزيينها بأنواع الصدف والخرز والحبوب، ويستعملونها كوسائد لرءوسهم!

وإذا كانت هذه الجماجم من رءوس الأعداء فيعد جمع أكبر عدد منها دليل قوة وشجاعة أما إذا كانت جماجم الأقرباء، فإنهم يتوارثونها أبًا عن جد؛ لأن تواجدها يُعَدُّ دليلاً على تواجد أرواح الأجداد بينهم.

وبالتالى كان لهذه الوسائد أهمية خاصة تدفع تلك القبائل أن تجعل استعمالها مقصورًا على الذكور البالغين.

أما فى جزر «فيجى» فى المحيط الهادى فلا تُصنع الوسائد أو مساند الرأس إلا لزعيم القبيلة؛ لكيلا يلامس رأسه ـ الذى يحوى قوة روحية خارقة ـ الأرض[1].

*** معبد السماء:**

فى العصور القديمة كان فى بكين معبد يسمى «معبد السماء» يجرى فيه احتفال طقوسى ضخم يبدأ فى الثالثة صباحا، حيث يُحْمَل الإمبراطور، ويحيط به الحرس الإمبراطورى والمستشارون والأمراء والأحبار وعازفو البلاط؛ ليقدم الصلوات من أجل موسم خير للحصاد الوفير، داعيًا لأسرته بالتوفيق والفلاح، ومتمنيًا لشعبه الرخاء.

ويقرب الإمبراطور القرابين للسماء، منجزًا وعده كرسول للآلهة فى إدارة شئون الكون بالعدل والحق، راجيًا من السماء أن تكون فى صفه لا فى صف أعدائه.

---

(١) مجلة الشرق الأوسط الصادرة فى ١٩٩١/٩/٤ (بتصرف).

ويتجه الإمبراطور فى البداية إلى قاعة القبة السماوية ليؤدى الصلوات ويقدم البخور الذى يملأ المكان أمام الألواح المقدسة التى تمثل عناصر الكون السماوية: الشمس، والقمر، والنجوم، والأمطار، والرياح، والرعد والبرق.

وحول القاعة يقوم حائط الصدى السماوى الهامس... وهو عبارة عن جدار دائرى سحرى يردد صدى الصلوات المقدسة التى تجرى داخل الهيكل.

وينتقل الإمبراطور فى محفته بعد ذلك جنوباً إلى الشرفة المرمرية حيث جسر الدرج الأحمر الذى يقوم على أعمدة طويلة تعلوها أقواس منقوش عليها تماثيل التنين. ومنها إلى المذبح الدائرى «هونيك» فى القاعة الوسطى التى تعلوها ثلاثة أبراج متدرجة الاستدارة، متمركزة بأرقام فردية تتفق مع فكرة الكفَّارة واسترضاء الآلهة فى المعتقد القديم.

وهنا على المنصة الوسطى تتلاقى السُّلطتان: الأرضية والسماوية، ويجرى الاحتفال الرئيسى أمام الألواح المقدسة، وتتم الطقوس، ويذبح الإمبراطور عجلاً قرباناً للآلهة...

وحين ينتهى الاحتفال المقدس يُحْمَلُ الإمبراطور فى طريقه إلى القصر الإمبراطورى من خلال «باب السلام السماوى»[1].

*** نظم اجتماعية من روسيا القديمة:**

كانت الشعوب الروسية قديمًا لها نظم غريبة[2] منها: أنه إذا مرض واحد منهم ضربوا له خيمة بعيدًا عنهم وطرحوه فيها، وجعلوا معه شيئًا من الخبز

(١) مجلة العربى الكويتية الصادرة فى يوليو ١٩٨٨ (بتصرف).

(٢) منذ أكثر من خمسة قرون عرف الرَّحَّالَة العربُ الروسَ، وكتبوا عنهم أوصافًا وانطباعات ترسم فى مجموعها صورة مثيرة، فقد كان للمسلمين فى العصور الوسطى قصب السبق فى جميع الميادين، ومنها ميدان دراسة الشعوب، وتحليل سيكلوجيتها ونظمها الاجتماعية.

والماء، ولا يقربونه، ولا يكلمونه، بل ولا يتعاهدونه، ولا سيما إذا كان فقيراً أو مملوكاً... فإن برئ وقام رجع إليهم، وإن مات أحرقوه، وإن كان مملوكاً تركوه على حاله تأكله الكلاب وجوارح الطير... وإذا أصابوا لصّاً جاءوا به إلى شجرة طويلة غليظة وشدوا فى عنقه حبلاً وثيقًا وعلقوه فيها، ويبقى معلقًا حتى يتقطع الحبل من فعل عوامل الطبيعة من الرياح والأمطار.

وتُحْرَقُ المرأة إذا مات زوجها، حيث إنها تعتقد أن حرقها يدخلها الجنة؛ ولذا فالنساء يرغبن فى إحراق أنفسهن ليدخلن الجنة(١).

وكل أمرأة منهن تضع على ثديها حقة مشدودة إما من حديد أو نحاس أو فضة أو ذهب على قدر قدرة زوجها المادية، وفى كل حقة حلقة فيها سكين مشدود على الثدى أيضًا... وفى أعناقهن أطواق ذهب وفضة؛ لأن الرجل إذا ملك عشرة آلاف درهم صاغ لامرأته طوقًا، وإن ملك عشرين ألفًا صاغ لها طوقين، وكلما زاد عشرة آلاف درهم يزيد لها طوقًا آخر(٢).

وكان للرجل سرير يجلس عليه ومعه جواريه، فينكح الرجل جاريته ورفيقه ينظر إليه، وربما اجتمعت الجماعة منهم على هذه الحالة بعضهم أمام بعض، وربما يدخل التاجر عليهم ليشترى من بعضهم جارية، فيصادفه ينكحها، فلا يزول عنها حتى يقضى أربه(٣).

ولا بد لهم فى كل يوم بالغداة أن تأتى الجارية ومعها قصعة كبيرة فيها ماء، فتقدمها إلى مولاها فيغسل فيها وجهه ويديه وشعر رأسه، ويسرحه

---

(١) وهذه عادة من العادات القديمة التى كانت شائعة فى الهند.

(٢) المسالك والممالك: الإصطخرى.

(٣) هناك أوصاف يصفها الرحالة عن الشعب الروسى: منها أنهم مستهترون يشربون الخمر ليلاً ونهارًا، وربما مات الواحد منهم والقدح فى يده، ولا يدخل إليهم غريب إلا قتلوه... وهم لا يستنجون من غائط، ولا يغتلسون من جنابة، ولا يقضى أحدهم حاجته وحده إنما قد يصحبه ثلاثة من رفقائه يحرسونه..

بالمشط فى القصعة، ثم يتمخط ويبصق فيها، ولا يدع شيئًا من القَذَر إلا فعله فى ذلك الماء... ويستعمل الماء أكثر من شخص فى البيت، ولا يضيره أنه استعمل قبل ذلك.

ومن أغرب العادات القديمة فى روسيا أن الجارية التى تُقتل تُدْخَل قبة من قبابهم فيجامعها صاحبها ويقول لها: «قولى لمولاك إنما فعلت هذا من محبتك». وإذا مات الرئيس منهم قال أهله لجواريه وغلمانه: من منكم يموت معه؟ فيقول بعضهم: «أنا»... فإذا قال ذلك فقد وجب عليه، ولا يجوز أبدًا أن يرجع فى كلامه إذا أراد ذلك.

والرجل الفقير منهم إذا مات يعملون له سفينة صغيرة ويجعلونه فيها ويحرقونها، أما الغنى فيجمعون ماله، ويجعلونه ثلاثة أثلاث: ثلثًا لأهله، وثلثًا يقطعون به له ثيابًا، وثلثًا يشترون به نبيذاً، ويشربونه يوم تقتل جاريته نفسها وتحرق مع مولاها.

وقديما أيضًا كان من حق ملك الروس أن يكون معه فى قصره أربعمائة رجل من صناديد أصحابه وأهل الثقة عنده، يموتون بموته، ويُقتلون دونه... ومع كل واحد منهم جارية تخدمه وتغسل رأسه وتصنع له ما يأكل ويشرب، وجارية أخرى ليجامعها... وهؤلاء الأربعمائه يجلسون تحت سرير الملك، فى حين يجلس معه على السرير أربعون جارية لفراشه، بأيديهن مجامر من ذهب وفضة، وهى مطلقة بالبخور..

وليس هناك مانع أن يجامع الملك الواحدة منهن على مشهد من الجميع... والجارية فى كل يوم تشرب وتغنى فرحة مستبشرة[1].

---

(١) عجائب الأقطار: ابن إياس (بتصرف).

وكان من عادات ارتداء الثياب أن يلبس الرجل منهم كساءً يكسو به أحد شقيه ويخرج إحدى يديه منه. . . ومع كل واحد منهم سيف وسكين وفأس لايفارقها أبدًا. وكانوا يحلقون لحاهم، وبعضهم يفتلها مثل أعراف الدواب ويضفرها(١).

* * *

*** نظم التكافؤ فى الزواج فى بعض المجتمعات القديمة:**

فى المجتمعات القبلية التى تعيش على الرعى أو الزراعة تسعى الأُسر ذات المكانة الاجتماعية الأعلى إلى تجنب الارتباط بالأسر ذات المكانة الأدنى عن طريق تجنب الزواج بهم. . . ويسعى أفراد القبيلة إلى تجنب الزواج من الأسر التى تعيش على هامشها مستظلة بظلها. . . كما يحرم الزواج بين الأحرار والأرقاء. . . وقد كانت الرغبة الملحة فى تجنب مصاهرة غير الأكفاء سببًا فى ظهور بعض العادات الغريبة الشاذة. فلدى قبائل «الأزاندى»(٢) مثلا تمارس طبقة «الأفونجارا» ـ وهى الطبقة الحاكمة ـ زواج الآباء من البنات، وزواج الإخوة من الأخوات تجنبًا لمصاهرة العوام من أبناء القبيلة.

ولدى قبائل «الشيلوك»(٣) كان الزواج إلى عهد غير بعيد محرمًا على بنات الملك، وإذا حملت إحداهن من غير زواج قتلت.

وفى الجزيرة العربية كان العرب ـ قبل الإسلام ـ يَعْتَدُّونَ بالأنساب أيما اعتداد؛ ولهذا لم يكونوا يزوجون بناتهم إلا من الأكفاء، ويحرصون على

---

(١) المرجع السابق: (بتصرف).

(٢) توجد فى جمهورية السودان وجمهورية الكنغوكينشاسا.

(٣) توجد فى جمهورية السودان.

عدم الزواج من طبقة أدنى، والذين يضربون بهذه القاعدة عرض الحائط يتعرضون لسخط أبناء قبيلتهم، ويجلبون على أنفسهم العار والاحتقار.

وفى الهند كان الهندوس ينفرون أفراد الطبقات العليا ـ ولا سيما البراهمة ـ من الزواج من أشخاص ينتمون إلى الطبقات الدنيا، حتى انتهى الأمر بتحريم هذا الزواج كلية... وقد عارض «منو» زواج الرجل من البراهمة، وهى أسمى الطبقات، بامرأة من «الشودرا» وهى أدناها، معارضة شديدة. ويذهب إلى عدم وجود كفّارة لمن ذاق نداوة فم امرأة من «الشودرا» وأنجب منها أولاداً(١).

وفى الصين القديمة كان الزواج ممنوعًا بين أفراد الطبقة العليا «شيه shik» والطبقة الدنيا «شو shu» لما كان بينهما من بون اجتماعى شاسع... وكان الاختلاف بينهما يرجع إلى النسب، وكان أفراد أسر «الشيه» الذين يسيئون التصرف يُنْتَقَدُونَ بشدة، وكانوا يُقَابَلُون بالاحتقار من جماعتهم... وفى عهود معينة كان مثل هذا الزواج ممنوعًا بحكم القانون، ولم يكن القانون يسمح للرجال الذين ينتمون إلى أُسر الممثلين والموسيقيين بالزواج من بنات الأحرار.

وكان عقاب الرجل من هذه الطوائف الذى يتزوج ابنة رجل حر الجلد مائة جلدة، ونفس الجزاء كان يوقع على رب أسرة الفتاة الذى زوّجها وهو عالم بوضع طالب الزواج، وذلك فضلاً عن إلغاء الزواج وإعادة الفتاة إلى أسرتها... غير أن القانون كان يسمح للرجال الأحرار بالزواج من العواهر

(١) وصف البيرونى عادة الهندوس فى هذا الخصوص بقوله: «ويجوز لكل واحد من أهل الطبقات أن يتزوج من طبقته وفيما دونها، ولا يحل له أن يتزوج من طبقة فوق طبقته، ويكون الولد منسوبا إلى طبقة الأم دون طبقة الأب...».

والمغنيات، وذلك باستثناء الموظفين الذين كان يحرم عليهم مثل هذا الزواج ويعاقبون عليه(١).

وفى روما القديمة كان القانون يحرم الزواج بين النبلاء والعامة. وفيما بعد ألغى هذا التحريم. كذلك كان القانون يحرم الزواج بين الأحرار الأصلاء والعتقاء، وعندما ألغى هذا التحريم فيما بعد أبقى عليه بالنسبة للطبقة الأرستقراطية الممثلة فى أعضاء مجلس الشيوخ وذريتهم حتى الدرجة الثالثة(٢).

وعند الجرمان لم تكن القوانين الجرمانية تسمح كقاعدة عامة بالزواج بين الأحرار والأرقاء. وكان زواج الرجل الحر من أَمَة يفقده حريته... كما كان زواج المرأة الحرة من عبد يفقدها حريتها.

ولدى بعض الجرمان كان العرف يجرى فى حالة رغبة فتاة فى الزواج من عبد برغم إرادة والديها - بأن يناولها الملك أو الكونت حاكم المقاطعة سيفاً ومغزلاً، فإذا تناولت السيف كان عليها أن تقتل العبد به... وإذا اختارت المغزل فقدت حريتها وصارت أَمَةً، غير أن القانون كان يمسح للأحرار الأصلاء بالزواج من إماء الملك أو إماء الكنيسة، بدون أن يستتبع هذا الزواج فقدانهم حريتهم!(٣).

وعند الحيثيين كان للرجل الحر أن يتزوج الأمة، ولم يكن هذا الزواج يستتبع تغييراً فى وضعه الاجتماعى، لكن إذا تزوج العبد امرأة حرة ودفع من

(١) التكافؤ عند الزواج فى قديم الزمان وحديثه: د. محمود سلام زناتى (مجلة العربى - العدد ١٣٨).

(٢) المرجع السابق (بتصرف).

(٣) المرجع السابق (بتصرف).

أجلها مهرًا فقدت المرأة حريتها وصارت أمة. وإذا خطب العبد إلى رجل حر ابنته وزوَّجها إياه لم يكن فقد الحرية يقتصر على المرأة، وإنما كان يمتد إلى أبيها على سبيل العقاب(١).

* * *

*** حفلات السمَر:**

فى نهاية القرن العاشر الميلادى كان الرقص والموسيقى والغناء من أكثر مباهج الحياة شيوعًا فى الأندلس، وكانت الحفلات التى يشهدها المدعوون تبدأ بتناول الطعام على أنغام الموسيقى، بعدها يبدأ الغناء والرقص على موسيقى العازفين من الرجال والنساء(٢).

واشتهرت من بين أنواع الرقص العديدة رقصة ترتدى فيها الراقصات ملابس الغلمان، ويمتطين خيولاً صغيرة من خشب معلقة بأطرافها أقبية... وطبقًا لنظام معين تأخذ الرقصة شكل معركة حقيقية فيها الكرُّ والفرُّ، والمحاورة.

وهناك حفلات أكثر بساطة وشعبية وانتشارًا، تكون الراقصة فيها وحدها أو مع أخريات يرقصن بالصاجات على أنغام البوق... وتستمر هذه الحفلات حتى الصباح، ويطلق عليها اسم «سمر»(٣) والذى ما زال يعرف حتى وقتنا الحاضر... ويحمله اليوم أعرق وأرقى مكان للرقص التقليدى فى «مدريد»(٤).

---

(١) المرجع السابق (بتصرف).

(٢) ترك لنا ابن حزم فى كتابه «طوق الحمامة».. وابن بسام فى كتابه «الذخيرة» وصفًا شائقًا ومفصلاً لبعض الحفلات التى كانت تُقام فى بيوت الخاصة.

(٣)أخذ فى اللغة الإسبانية صورة sambra .

(٤) العاصمة الإسبانية.

وصارت لتلك الرقصات شهرة بقيت واستعصت على الفناء، بعد أن أصبحت إسبانيا الآن تُعرف بفنونها، ومنها الرقصة الإسبانية.

* * *

* في المكسيك[1] أيضاً أهرامات ، ولكن ليست للموتي:

لم تبن شعوب المكسيك القديمة أهراماتها[2] لدفن الموتى ـ كما فعل الفراعنة فى مصر ـ إذ كانوا يدفنون جثث موتاهم فى حفر عميقة جداً، أو يحرقونها، بل بنوا أهراماتهم باعتبارها معابد تُقام فيها الاحتفالات، وفى بعض هذه الأهرامات تقدم القرابين، وكان «الأزتيك»[3] يحضرون الضحية التى يريدون تقديمها للآلهة... وهى عادة من الأسرى الشبان الأقوياء، ويقذفون الضحية بقوة من أعلى لتسقط فوق حجر منتصب وسط الساحة؛ ليكسر ظهره، ثم يأخذونه ويمددون جثته فوق السرير الحجرى الرهيب ليشق صدره، ويستخرج قلبه الملتهب حرارة لتقديمه لإله الحرب فى معبده المقام فى إطار مجمع المعابد الذى يشتمل على العديد من المبانى والإنشاءات التى كانت مساكن لرجال الدين، أو معابد لآلهة، مثل معبد «كواتزكواتل» وغيره.

وتوازى هذه الإنشاءات الحجرية ما يُعرف بطريق الموتى، الذى سماه «الأزتيكيون» شعوب المكسيك القديمة بهذا الاسم، حيث توجد عظام بشرية

---

(١) تقع المكسيك جنوبى الولايات المتحدة الأمريكية، وتتصل جنوبا بجواتيمالا التى تعد صلة الوصل بأمريكا الوسطى والجنوبية... ويبلغ عدد سكانها نحو ٨٥ مليون نسمة، يعيش منهم ٢٥ مليون نسمة فى العاصمة «مكسيكو سيتى».

(٢) هى أبنية هرمية مربعة الأضلاع، تداخل بعضها ببعض بألوان مختلفة غلب على أكثرها اللون الأحمر والأسود النارى، فصلت بينها ممرات للعابرين.

(٣) «الأزتيك» تطلق على شعب المكسيك القديم.

تمتد لمسافة أربعة كيلو مترات، وعرض خمسة وأربعين مترًا. ولشعب المكسيك القديم «الأزتيك» فلسفة خاصة فى الهندسة المعمارية لبناء المعابد بوجه خاص، حيث يقوم طراز الهندسة الأزتيكية على بناء المعبد أولا، ثم توسيعه كل ٥٢ سنة.. وهى بالنسبة لهم مدة دورة الطقوس.

وتتميز هذه المعابد بساحات مرتفعة كانت تُستخدم لأداء الطقوس... وكما كان «الأزتيك» متقدمين فى الهندسة فقد كانوا أيضًا متقدمين فى الطب والزراعة، فعرفوا عددًا كبيرًا من المنتجات الزراعية، مثل الكاكاو، والتبغ، والقطن، والطماطم، وعشرين نوعًا من الفلفل الحار.

كما كانوا متقدمين فى الطب، فبرعوا فى علاج أمراض القلب، وغير ذلك من الأمراض الأخرى.

وكان تقدم «الأزتيك» فى المجالات المختلفة سببًا فى إقامة حضارة لها فى المكسيك على نحو لم تعرفه شعوب أخرى سوى شعب مصر القديم، بصرف النظر عن الجزء المتمثل فى تقديم القرابين البشرية، والذى أشرنا إليه آنفاً.

وبرغم حضارة المكسيك القديمة فإنها كان يحكمها معتقدات خرافية وأساطير، مثل الأسطورة القائلة:

«إن الشمس الرابعة أشرقت فى «ثيوثيهواكان»[1] بعد أن انطفأت الشموس الثلاثة السابقة، وعندما ماتت تلك الشمس ومات معها الناس، سئمت الآلهة التى لم تعد تجد مَنْ يقدسها، فاجتمعت فى «ثيوثيهواكان» واتفقت على أن تتحول إحداها إلى شمس والأخرى إلى قمر، وأقيمت محرقة عظيمة، فتقدم الإلـه الفقير الشجاع «ناناماواتزن» وألقى نفسه فى النار بدون تردد، فتحول إلى شمس، أما الإلـه الغنى «تيكتز يتكاتل» فقد تردد قبل أن

(١) اسم مدينة مكسيكية قديمة، وتعنى «حيث يصبح الرجال آلهة»!

يلقى بنفسه فى المحرقة، فتحول إلى قمر شاحب، شعاعه انعكاس لشعاع الشمس. ومن هنا جاء اسم الهرمين: هرم الشمس، وهرم القمر.

كما وجدت أسطورة أخرى تدور حول إلـهة دموية قاسية تسمى «تونانتستيلا» كان السكان يرهبونها ويخشون بطشها؛ ولذا كانوا يأتون إلى مزارها زحفاً على ركبهم من شدة الرعب(١).

وعندما فشل الرهبان فى إقناع هؤلاء بترك عبادتها. قالوا لهم: إن هذه الإلـهة هى فى الواقع قديسة مسيحية تسمى القديسة «تونانتستيلا»، فاقتنعوا، لكنهم ظلوا يرهبونها، بل بقى بعضهم إلى وقت قريب يأتون إلى الكنيسة المسماة باسمها زحفًا على ركبهم، كما كان يفعل أجدادهم الوثنيون!

هكذا أقام «الأزتيك» شعب المكسيك القديم حضارته بالاهتمام ببناء الأهرامات وإنشاء المعابد والقصور... كما وصلوا إلى ذروة أخرى من ذُرَا التطور الحضارى بمقياس زمنهم الموغل فى القدم.

* * *

*** رابطة الإشبين:**

فى مجتمع أمريكا اللاتينية القديم كانت من أهم الروابط الاجتماعية رابطة الإشبين أو الأب فى العماد التى تنشأ من المعمودية حيث كان مستأجرو الأرض يسعون إلى جعل مُلاَّك الأرض آباءً فى العماد لأبنائهم.

كما كان العمال يحاولون كسب هذا الشرف من أصحاب العمل. هذا، وقد أوجدت رابطة «الإشبين» التزامات ضخمة تجاه الشخص الذى ارتضى أن

(١) لنا أن نتصور إلى أى مدى يصل التفكير البشرى إلى الضلال فى عقيدته بحثاً عن إلـه يرهبه ويقدره ويعمل له حسابًا.

يكون «إشبينًا» حيث لا يقتصر الأمر على تطلع أبنائه فى العماد إليه طلبًا لمساعدته ومعونته طوال حياتهم، بل يستطيع ذلك كل أفراد عائلات الأطفال الذين تبناهم.

وقد يطلب من الإشبين «تقديم المال والمساعدة فى البحث عن عمل أو الحماية، بل ومعظم ما يمكن أن يحتاج إليه الابن بالعماد.

وكان صاحبُ العمل ـ حتى ولو لم يكن «إشبينا» ـ مضطرا إلى حد كبير إلى معاونة عماله أو مستأجرى أرضه السابقين، حتى ولو رحلوا إلى بلاد أخرى، فقد فرضت عليه هذه العلاقة التزامات يؤديها مدى حياته، وكانت هذه الإلتزامات متبادلة بطبيعة الحال.

وكان هذا الالتزام يذهب أحيانًا إلى حد الخروج فى الحملات التأديبية ضد ملاك الأرض المجاورين، أو الخدمة فى مناصرة الآمال والأفكار التى يعتنقها صاحب الأرض.

وهكذا كانت صلات الرعاية منتشرة، فلم تكن العائلة مقصورة على الأب والأم والأبناء فحسب، بل كانت تضم كل فرد فى العائلة أو فى غيرها. وبالتالى أوجدت هذه الشبكة العريضة من الصلات شعورًا بأن الفرد لم يكن وحيدًا فى مجتمع أمريكا اللاتينية القديم، بل يعيش فى سلسلة معقدة من الواجبات والحقوق التى قد تبدو غريبة فى زماننا المعاصر.

وجدير بالإشارة أن هذه الالتزامات كانت شخصية إلى أبعد حد، سواء كانت نتيجة لوضع الأب الخاص فى الأسرة، أو لعلاقة الأبوة التى يمثلها، ولم يكن يشعر بشىء من الالتزام إزاء أى شخص لا تربطه به هذه العلاقة، حتى ولو كانت أعمال بر وإحسان(١).

* * *

(١) أمريكا اللاتينية اليوم: روبرت ج. ألكسندر، ترجمة رمزى يسى (بتصرف).

• نظم وعادات غريبة تميز بها الأتراك القدماء:

كان للأتراك فى العصور الماضية مجلس يسمى «قورولتاى»(١) يضم أُمَراءَهُم، ورؤساءَهم، وأُولِى الأمر منهم، يجتمعون فيه دوريا للتشاور فى شئونهم، والنظر فيما يطرأ من أمور، كإعلان الحرب وإبرام الصلح.... وكانت لهم مجموعة من القوانين المدنية تسمى «تورة» وأخرى للقوانين الجنائية تسمى «ياسا».

وكان للمرأة عندهم منزلة كبيرة، ومما يدل على ذلك أن زوجة الخاقان(٢) كانت تشاركه فى التوقيع على ما يصدر من نشرات... وهذا ما لا يحدث لدى أى شعب فى الغابر أو الحاضر، كما بلغ من إكرامهم للمرأة أن جعلوا النسب من قِبَلِ الخال.

وجرت عادتهم بنحر القرابين على قبور موتاهم... فى حين اكتفوا بالرثاء الذى كان يُقال معظمه فى رؤسائهم وأهل الحل والعقد منهم.

وكانوا يحرصون على أن تموج مراثيهم بالحماسة وتمجيد البطولة، وذلك طابع غلب عليها من طابع التحزن والتفجع.

---

(١) من الجدير بالذكر أن الأتراك - اليوم - يطلقون كلمة «قورولتاى» على المؤتمر.

(٢) أى الحاكم أو الملك.

وقد اعتنق الأتراك القدماء أكثر من دين على مر العصور، من ذلك دين يذهب إلى أن للكون إلـهين: أحدهما للسماء، والآخر للأرض.

ومن عقائد هؤلاء أن روح الميت إن كانت خيرة صعدت إلى السماء على هيئة طائر جميل، فى حين أن الروح الشريرة تسيخ وتتردى فى الأرض.

كما يعتقدون أيضًا أن فى المياه جنيات تسكنها، وعلى المؤمنين تقديم القرابين لها...

وقد تسربت إليهم أديان أخرى من الشعوب التى جاورتهم، فأخذوا البوذية عن الهند... والزرادشتية عن الفُرس، تلك الديانة التى تقرر إلـهين لهذا العالم: إلـه الخير، وإلـه الشر.

وقد اعتنقوا مذهب الفناء الذى دعا إليه «مانى الفارسى»، كما عرفوا المسيحية النسطورية التى حملها إليهم أولئك المبشرون... إلى أن دخل عليهم الإسلام فى القرن الثالث الهجرى.

* * *

*** تقديس إمبراطور اليابان:**

من العادات القديمة عند اليابانيين تقديس الإمبراطور والنظر إليه كأب للشعب يخلصون له الإخلاص كله، ويدينون له بالولاء، ولكن هذا التقديس أخذ فى الاضمحلال، وأخذ الولاء يقل، والإخلاص يتضاءل نتيجة لاختلاطهم بالشعوب الأخرى.

فلقد كان الإمبراطور إذا خرج يقابل الناسُ موكبه بالرهبة والخشوع والانحناء، ولا يجرءون على النظر إليه، ثم تطور الأمر فصار موكبه يُقابَل بالهتاف والتهليل...

وكان لا يجوز النظر إليه إلا للخاصة الممتازين، ثم توالى الزمان وتغير الحال، فأصبح يكلم الناس ويتجول فى الطرقات.

وكان أساس تقديس الإمبراطور وتأليهه عند الكثير من اليابانيين اعتقادهم بأن جده الأول نزل من السماء ليحكم البلاد.

وهناك أسطورة قديمة كانوا يرددونها تقول:

«إنه عندما تكونت بلاد اليابان، وهى أول أرض تكونت على سطح الأرض، أرسلت إلهة الشمس - وهى ابنة الآلهة الذين خلقوا الأرض والسموات - حفيدها من السماء ليحكمها قائلة له: «هذه البلاد سيكون أحفادى فيها سادة الأبد وأرجو لها البقاء ما بقيت الأرض والسماء»... فنزل الحفيد إلى اليابان وفى صحبته حاشية كبيرة، واتخذ له مكانًا مختارًا بجبل «تاكاشيمو» جنوب جزيرة «كيوشيو».. وهناك ولد حفيده الرابع «جيمو»، فكان ذلك الحفيد أول إمبراطور وُلد فى أرض اليابان ونشأ فيها، ولما آل إليه حكمها أخذ فى أسباب ترقية البلاد وتمدن أهلها.

هذه هى الأسطورة الدينية القديمة التى كان يعتقدها رعايا الإمبراطور المخلصون[1].

* * *

(١) اليابان: حسن محمد جوهر وآخر، «سلسلة شعوب العالم» (بتصرف).

*** من النظم والعادات اليابانية القديمة:**

فى الأزمنة القديمة... كان أعضاء الأسرة الإمبراطورية والطبقة الراقية يتبعون جميعًا نظامًا صارمًا لتغيير الثياب..

ففى أول أبريل كانوا يستبدلون بـ «الكيمونو»(١) المحشو بالقطن الذى يُستخدم خلال الشتاء «كيمونو» مبطنا بحشو خفيف. وفى الخامس من شهر مايو يغيرونه بـ «كيمونو» غير مبطن، وذلك للاستخدام فى فصل الصيف.

هذا، وحتى عهد قريب، كانت عادة تغيير الثياب من أجل الصيف سائدة فى أغلب الأسر، ولكن مع نزعة الفردية والتنويع التى فى الأزياء فى السنوات الأخيرة، فإن التغيير الموسمى لم يبق الآن إلا فى مجال الأزياء الرسمية.

ومن العادات القديمة فى اليابان أن يردد الزُّرَّاعُ أغانى زرع الأرز وهم يزرعون حاصلاتهم، وكانوا يحتفلون بإتمام عملهم بـ «السكيهان»(٢)..... و«الساكى»(٣) ويبتهلون من أجل حصاد جيد وفير.

وجدير بالإشارة أن هؤلاء الزُّرَّاع كانوا يعتقدون أن أنسب وقت لزرع البذور يقع فى اليوم الخامس من شهر يونيو أو نحو ذلك.

* * *

(١) الزى الوطنى اليابانى.

(٢) السكيهان: طبق خاص من الأرز المطهى والفاصوليا الحمراء.

(٣) الساكى: نبيذ الأرز اليابانى.

• الساموراى السبعة والأربعون[1]:

يفيض التاريخ اليابانى فى العصور الوسطى بأساطير الولاء والشجاعة والتضحية والفداء، ففى تلك العصور تكونت طبقة «الساموراى» أو المحاربين الذين كان الواحد منهم ينذر نفسه ويكرس جهده لخدمة سيده الإقطاعى.

فقد كان المجتمع الإقطاعى يتطلب من «الساموراى» أن يدين بالولاء المطلق لسيده وحده دون سواه، وأن يخدمه ويفديه بروحه، لا طمعًا فى مكافأته ولا خوفًا من بطشه، وإنما فقط لكونه سيده.

ويعبر أحد أولئك المحاربين عن تلك المعانى فى وصيته لابنه فيقول: «إن واجب «الساموراى» يا بنى هو أن يكون كالراهب الذى يراعى أحكام دينه، وعمله هو الحفاظ على الدولة بحماية عاهلها، أما ولاؤه فيجب أن يبقى بدون تغيير، سواء كان حظه من الغنائم قلامة طفر أو ألوف الأفدنة... كما ينبغى على «الساموراى» يا بنى ـ ألاَّ ينظر إلى حياته باعتبارها ملكًا له، وإنما على أنها منحة من سيده».

أما عن القانون الأخلاقى غير المكتوب لطبقة المحاربين، فإنه يقدم الواجب نحو السيد الأعلى على عاطفة المحارب الطبيعية، مثال على ذلك

(١) اليابان فى عيون مصرية: دكتور يحيى زكريا.

الأم التى تضحى بطفلها من أجل رضيع سيدها الإقطاعى، أو لا تظهر أى تأثر حين يذبح ولدها أمام عينيها لصالح هذا السيد!، أو يضحى الابن بوالديه فى سبيل حروب سيده، أو يبيع زوجته فى بيوت الدعارة ليحصل على المال اللازم للدفاع عن شرفه العسكرى!

وهناك حكايه هامة اشتهرت فى التاريخ اليابانى بعنوان «الساموراى السبعة والأربعون»... وترجع أهميتها إلى أنها تصور بجلاء أخلاقيات الفرسان اليابانيين فى مطلع القرن الثامن عشر. وتتلخص وقائعها فى أن أحد النبلاء الإقطاعيين حاول قتل ضابط كبير لتعمده إهانته حين كان يدربه على أصول «الإتيكيت» فى حفل رسمى بقلعة الحاكم العسكرى للبلاد، ولما كان مجرد رفع السلاح داخل القلعة يعد فى حد ذاته جريمة لا تغتفر، فقد أمَرَ ذلك النبيل بالانتحار، وامتثل للحكم فى الحال، غير أن تابعى النبيل السبعة والأربعين تعاهدوا على الثأر له، وتربصوا بالضابط الذى تسبب فى موته إلى أن واتتهم الفرصة بعد سنوات مريرة من الصبر، فاقتحموا عليه بيته وفصلوا رأسه عن جسده، ثم حملوه إلى قبر سيدهم كى تقر عينه ولا يحزن... وبعد أن انتهت مهمتهم المقدسة قاموا بتسليم أنفسهم إلى السلطات لتتخذ الإجراءات ضدهم... ونظرًا لأن تصرفهم كان تصرفاً مثاليا بالمعايير الأخلاقية لطبقة «الساموراى»، ولأنه جاء أيضاً متمشيًا مع المبدأ الكونفوشيوسى القائل «بأن التابع لا يحل له العيش مع قاتل سيده تحت سماء واحدة» ـ فقد وقعت الحكومة العسكرية التى تعتنق المبادئ الكونفوشيوسية فى حيرة بالغة وحرج شديد بشأن معاقبة أولئك القتلة...

وبعد عام كامل من الجدل المحتدم حكم عليهم بالانتحار... وهو العقوبة البديلة لعقوبة الإعدام حين يكون القاتل من «الساموراى» طبقة المحاربين. وبالفعل انتحر الفرسان اليابانيون السبعة والإربعون، وتم دفنهم بأحد الأضرحة بمدينة طوكيو ليصبح ذلك الضريح قبلة الناس وموضع توقيرهم.

وظل اليابانيون يمتحدون تصرفهم، ويلقنون أبناءهم جيلاً بعد جيل كيف يوقرون ذكرى أولئك الأبطال القوميين. بل إن وحدات الجيش اليابانى فى العشرينيات والثلاثينيات من القرن الحالى ظلت تحتفل رسمياً بذكراهم، وذلك بتلاوة حكايتهم كرمز للولاء المطلق الذى يجب أن يتحلى به أفراد القوات المسلحة.

ولا تزال تلك الأسطورة القومية ماثلة فى وجدان الشعب حتى وقتنا الحاضر، حتى إنها تتخذ موضوعًا متجددًا للعديد من المسرحيات والأفلام السينمائية، والدراما التليفزيونية.

* * *

*** منذ أكثر من ألف عام يعيش مجتمع بلا نساء:**

مجتمع من نوع غريب لم يعرف العالم له مثيلاً على امتداد تاريخه الطويل... مجتمع يعيش فوق قمة جبل وعر لم يسمح لواحدة من بنات حواء أن تطأ أرضه بأقدامها منذ أكثر من ألف عام... مجتمع يعيش وفقًا لتقاليده الخاصة التى وضعها منذ تلك المدة، وما زال يتمسك بها حتى اليوم...

ففى شبه جزيرة جبلية صخرية تبلغ مساحتها حوالى أربعين ميلاً على أرض اليونان بالقرب من بحر إيجه - يقيم الرهبان الأرثوذكس اليونانيون على جبل «أتوس»، وقد صنعوا من أديرتهم الأثرية دولة تكاد تكون شبه مستقلة... محرم على أى أنثى أن تقتحمها أو تتسلل إليها، ولو كانت من إناث الحيوان لا البشر، حتى لا تدنس تلك الأرض المقدسة. ويؤمن رهبان جبل «أتوس» بأن العذراء مريم وطئت بقدميها أرضهم يومًا ما، ومن ثم فإنهم ظلوا يحرمون دخول أية امرأة أخرى إلى هذه الأرض منذ أكثر من ألف

عام، وما زالوا يحافظون على هذا التقليد الغريب الذى لا مثيل له حتى اليوم.

. . . وجبل «أتوس» مكان فريد فى نوعه أيضًا من حيث تضاريسه، وفى أسلوب الحياة التى يسلكها ساكنوه.

وسكان هذه المنطقة يبلغ عددهم حوالى أربعة آلاف من الرهبان، بالإضافة إلى بضع مئات من الأشخاص العاديين. ويطلقون على هذ المنطقة فى اليونان اسم «جمهورية أثونيت المقدسة». . وقد أسسها راهب يدعى «أثانا سيوس» عام ٩٦٨ ميلادية فوق هذه المنطقة الجبلية المرتفعة التى يصعب الوصول إليها. . . .

ويعيش الرهبان فى أديرة عتيقة بعضها يرجع عهده إلى أكثر من ألف عام، فى حين تعيش جماعات أخرى فى مدن صغيرة تضمها شبه الجزيرة الصخرية.

وتمتاز مدن جبل «أتوس» وقراه بأنها تتمتع باكتفاء ذاتى شبه كامل: لكل منها حوانيتها وأسواقها الخاصة، وورشها التى تنتج ما يحتاج إليه من منتجات، وحقول تكفل لها كل ما تحتاج إليه من طعام. . . ولكن الشىء الوحيد الذى تتفق فيه هو خلوها تماماً من أى أنثى حتى إناث الحيوانات كما ذكرنا. ولكنهم سمحوا أخيرًا بدخول إناث الدجاج للحصول منها على البيض الطازج الذى يحتاجون إليه فى طعامهم.

ويقضى رهبان جبل «أتوس» أغلب أوقاتهم فى التأمل والصلاة داخل جدران الدير. ولكنهم فى أوقات فراغهم يعملون فى أعمال دنيوية، وقد تخصص كل منهم فى نوع معين من الأعمال.

ومن تقاليد جبل «أتوس» التى يحترمها كل من يعيش فيه ألاَّ يسأل أحد منهم أى أخ من الوافدين الجدد... من أين أتى؟... أو لماذا؟.. أو غير ذلك من الأسئلة الشخصية.

وسكان جبل «أتوس» فى العادة رجال جاءوا يلوذون به فرارًا من عذابات الحياة الدنيا فى العالم الخارجى، وأرادوا أن يقضوا بقية أيامهم فى غمرة من النسيان وسلام الروح.

وهناك نوعان من الأديرة فى جبل «أتوس»: نوع لا يملك الرهبان فيه شيئاً، حتى ثيابهم، إذ كل شىء يمتلكه الدير... ونوع يسمح فيه للراهب بالاحتفاظ بحاجاته الشخصية، وربما سمح له أيضاً بقطعة أرض صغيرة يزرعها لحسابه الشخصى.

وعاصمة جبل «أتوس» هى «كايرس» التى تعد مقر السلطة التى تحكم شبه الجزيرة، والتى تتكون من عشرين راهبًا، يمثل كل واحد منهم أحد الأديرة المختلفة.

وبعض هذه الأديرة على درجة كبيرة من الثراء، ولها ممتلكات فى أنحاء مختلفة من العالم تُركت لها فى وصايا بعض الأشخاص... وهى تحصل على دخل لا بأس به من هذه الممتلكات، وبعضها الآخر فقير، ودخله ينحصر فيما تنتجه الحقول وصيد الأسماك.

*** نظم تقليدية فى أثيوبيا قديماً:**

فى أثيوبيا ـ وفى العصور القديمة ـ كان إذا ما شجر بين اثنين خلاف ـ مهما كان تافهاً ـ اختارا حكماً ليحكم بينهما ويرضيان عادة بحكمه حتى ولو جار وحاد عن الحق. وذلك بالإضافة إلى مجلس التحكيم الذى كان ينعقد فى الحقول والطرقات والأسواق، ويختار له الحكام عادة ظلال أشجار التين الضخمة التى تمتد فروعها إلى مسافات بعيدة وتظللها.

وعادة ما كان ينتهى التحكيم بالصلح. . . . وإذا حكم القاضى لأحدهما طار فرحاً وخَرَّ ساجدًا أمامه، وداعيًا له بطول العمر، وهاتفاً بدوام العدل.

وإذا حكم لأحد على أحد بِدَيْنٍ ادعاه جاز للدائن أن يقيد المدين فى سلسلة إلى رسغه، ويجره معه أينما ذهب، ولا يطلق سراحه إلا إذا أدَّى دَيْنَه أو أُدِّىَ عنه.

هذا، وقد تطول المحاكمة وتستمر أياماً، ويتعطل القاضى المختار عن عمله، ومع ذلك فلا يرفض الأثيوبى أن يكون قاضيًا مختارًا؛ لأنه إذا فعل ذلك واشتهر عنه، رفض الناس أن يكونوا قضاته.

ومن عادة المتخاصمين المراهنة على كسب قضاياهم . . . وقد يكون الرهان خروفاً، أو رطلاً من عسل، أو صاعًا من دقيق، أو مبلغًا من المال.

وإذا طلب أحد المتخاصمين أن يراهن خصمه، وجب على الخصم قبول الرهان، والاَّ عُدَّ مغلوبًا على أمره وخسر قضيته.

ولا يتقاضى المحكمون أجرًا، وإنما يُفْرَضُ لهم شىء من الرهان إذا وجد.

وقد كان الأثيوبيون ـ فى الماضى ـ يلجئون إلى إجراءات غريبة لمعرفة المجرمين، أغربها وأشدها على الناس ما كان يعرف بـ «**الأفارستا**»، فإذا سرق مجهول متاعًا ثمينًا لأحد، يتم حبس أهل القرية التى حدثت فيها السرقة فى حظيرة كبيرة لا يخرج منها أحد، مهما كان أمر خروجه ضروريا، وبعد أن يستقروا فى الحظيرة يختار منهم ثمانية أشخاص أو عشرة يسمون الطيور(١) ويُؤْتَى بهم إلى قاضى القرية، وهو إما عمدتها أو قسّها، فيحلفون بأيمان مغلظة أنهم لا يخفون ما يسمعون أو ما يبصرون

(١) يقصد بهم ما يعرف الآن بـ «رجال المباحث» أو الشرطة السرية.

ويلى ذلك فترة انتظار طويلة، ويسير «الطيور» بين الناس فى أثناء فترة الانتظار هذه غير معروفين، ليتجسسوا ويتسمعوا الأخبار، فإذا ما عرف أحد الطيور السارق أعلم القاضى به... فإذا كان من بين الموجودين فى الحظيرة قبض عليه، ويتم الحكم عليه بما يستحقه، وإذا كان قد فرَّ يتم تغريم أهل القرية جميعًا ثمن الشىء المسروق، وبعدها ينصرفون إلى بيوتهم!

أما الذى تثبت عليه جريمة القتل، فعليه أن يدفع الدية المقررة، وذلك بعد رضاء أهل القتيل... وإذا لم يكن عند القاتل مقدار الدية المتفق عليها يتم شده بسلسلة إلى معصم أحد أقارب القتيل، ويظل هكذا حتى يتم جمع مقدار الدية فيطلق سراحه.

وكثيرا ما يلجأ المجرم إلى إحدى الكنائس، ويطلب وساطة قسيسيها، وفى العادة تقبل شفاعتهم إذا تطوعوا بها.

وإذا قبض على القاتل الذى لم تقبل منه الدية حكم عليه بأن يُقْتَلَ بالصورة التى قَتَلَ بها هو المجنىَّ عليه، تطبيقًا حرفيا للقانون السماوى: العين بالعين، والسن بالسن، والجروح قصاص.

وفى بعض جهات أثيوبيا النائية، يعمد إلى إجراء غريب لإظهار الفاعل المجهول ويسمى «ليباشا» Libacha، وذلك أن يعمد قس القرية إلى صبى فيخدره بمخدر معروف لديهم، فينام الصبى، ومن يراه فى نومه هو القاتل... فإذا ما استيقظ أخبر القس به، وكثيرًا ما ذهبت أرواح برئية ضحية لهذه الشعوذة[1].

* * *

(١) أثيوبيا: حسن محمد جوهر، من سلسلة شعوب العالم (بتصرف).

ومن العادات القديمة ـ فى أثيوبيا ـ أكل اللحم(١) نيئاً، وهو خير ما يُقَدَّمُ فى الولائم الكبيرة، حيث يجلس المدعوون متقلدين حمائل سيوفهم فى بهو الاحتفال، ويُطاف عليهم بالعجول المذبوحة وهى تقطر دمًا... فإذا ما قدمت لأحدهم نهض إليها واستل سيفه أو سكينته، ثم يولى وجهه نحو الداعى، ويحنى رأسه له، ثم يعض بنواجذه على قطعة منها، ويقطعها بسيفه أو سكينته ثم يقضمها قضماً، كما يقضم الوحش الضارى لحم فريسته(٢).

وكانوا يكرهون تناول الطعام فى العراء حذرًا من الشياطين، واتقاء شر الحاسدين، ويحدثون فى أثناء مضغهم الطعام صوتاً عالياً، وهذا كان يُعَدُّ علامة كرم الأصل وطيب العنصر عندهم؛ ولهذا لا يجرؤ الفقير أو الوضيع أن يُحدِث صوتا عاليًا فى أثناء أكله.

ومن العادات القديمة التى كانت تُرَاعَى عندهم أن يُقَدَّمَ الطعام كله لرب البيت أولاً، فيأكل منه ما يشتهيه، حتى إذا ما شبع نهض، وتنحى جانباً، فتجىء زوجته وأولاده فيأكلون من فضلته، فإذا ما اكتفوا نهضوا وأكل الخدم ما تبقى.

---

(١) يسمى الأثيوبيون أكل اللحوم نيئا «بروندو». ويزعم بعضهم أنه يولد صِفَتَى الشجاعة والاحتمال، وغير ذلك من أخلاق المحاربين الأبطال.

(٢) كتب المقريزى فى كتابه «الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام»: أنهم يأكلون اللحم نيئاً (والضمير يعود على الأثيوبيين)، حتى لقد أخبرنى من شاهد الحطى (أى النجاشى) داود بن سيف أرعد يأكل كرش بقرة نيئًا وما فيه من بقايا الفرث يسيل من شدقيه على حنكه... وشاهد رجلاً يأكل دجاجة وهى تصيح...». ويزعم بعض الأثيوبيين أنها عادة يرجع مبدؤها إلى عهد غارات المسلمين على بلادهم... وأنهم (أى المسلمين) ضيقوا عليهم الخناق، فكانوا لذلك يعتصمون بالغابات ويأكلون اللحم نيئًا تجنبًا لإيقاد النار التى تهدى الغزاة إلى مخابئهم.

ولم يكن الأثيوبيون ـ ملوكهم وسوقتهم ـ يلبسون إلا ما يستر عوراتهم حتى أواخر القرن التاسع عشر(١).

*** نظم اجتماعية لخدمة الحرب:**

عندما أراد «تشاكا» رئيس إحدى القبائل فى إفريقيا الجنوبية أن يجمع كل شعوب «البانتو» فى مملكة واحدة يكون هو على رأسها؛ لتتمكن من الوقوف فى وجه الأخطار التوسعية التى كان يمثلها «البوير» فى الجنوب، فضلا عن حرصه على جعل «البانتو» أُمَّة بالمعنى القومى للكلمة ـ عندما أراد ذلك جعل المجتمع كله فى خدمة الحرب... فأصبح الرجال من سن البلوغ حتى سن الشيخوخة مجندين فى الجيش، يقضون وقتهم فى القتال أو التدريب.. وحتى الختان الذى كان شائعاً فى مجتمع «البانتو» لم يعد له متسع من الوقت لما كان يقتضيه من طقوس.

ولم يعد الذكور وحدهم يطلبون للخدمة العسكرية، بل صار يطلب لها الإناث أيضًا، حيث شُكلت منهن فرق عسكرية، لم تكن تقصر مهماتها على الخدمات اللازمة للجيش، بل كان يطلب منها أن تشترك فى القتال عند الضرورة وتتدرب عليه.

ولم يعد الزواج خاضعاً لرغبة الرجال، بل أصبح ضرورة اجتماعية تمليها ضرورات الحرب... والأسرة لم تبق كما كانت فى الماضى خلية صغيرة من خلايا المجتمع يُسْأَل عن إعالتها رب البيت، بل أصبحت مسئولية المجتمع بأسره.

---

(١) كتب المقريزى أيضًا فى كتابه المشار إليه سابقًا:
«..أنهم عراة الأبدان، لا يكادون يعرفون لبس المخيط، بل يرتدون ويتزرون فى أوساطهم....».

وقد قضى «تشاكا» ألاَّ يتم زواج الرجال إلا فى سن متأخرة، وبعد أن يكونوا قد خاضوا عددًا كبيرًا من المعارك، وأبلوا فيها بلاءً حسنًا، فيكون الزواج عند ذلك مكافأة لهم على شجاعتهم، ولا يكون الزواج فرديا، بل يكون جماعيا، حيث تقوم فرقة من الذكور بالتزواج مع فرقة من الإناث، يحددها لها القائد الأعلى «تشاكا»... ويكون الأولاد فى رعاية المجتمع؛ ذلك لأن الأسرة تلهى عن الحرب، والحنين إلى الزوجة والأولاد ظاهرة من ظواهر الضعف التى يجب أن يتخلى عنها ـ فى رأيه ـ المجتمع المحارب!

* * *

*** عادات ونظم غريبة:**

فى بعض المجتمعات الزراعية القديمة بنيوزيلندة كان ينبغى أن تقوم النساء بزراعة القمح؛ لأن النساء يعرفن كيف ينجبن الأطفال، فى حين تعد الزوجة العاقر مؤذية لعملية الزراعة.

وكانت كثير من العادات تربط العروس بالقمح، فيذرونها بالقمح(١)، أو يُكَلِّلُونها به. وتطبق على المرأة الحبلى نفس الشعائر التى تنطبق على من تقوم بزراعة رقعة من الأرض بـ «البطاطا»

وكان هناك اعتقاد شائع بأن البذور تصيب حظّاً أوفر من النمو إذا تولت غرسها امرأة حبلى.

وفى مجتمعات أخرى كان يقتصر جنى المحصول على النساء العاريات الصدور، زعماً منهم أن هذا سوف يضمن غلة أوفر(٢).

---

(١) يلاحظ أنه ما زالت هناك بقايا من تلك العادة تتمثل فى نثر الأرز على العرائس؛ جرياً على عادة الأجداد الذين كانوا يعتقدون أن ذلك يكفل الخصوبة.

(٢) الغرب والعالم، الجزء الأول «تاريخ الحضارة»: كافين رايلى ترجمة د. عبد الوهاب المسيرى (بتصرف).

ومن الأنماط التى كانت شائعة فى تلك المجتمعات أنه لم يكن لديهم كلمة للتعبير عن الملكية للمتكلم الفرد. . . . فعندما يقول أحدهم مثلا: «هذه أرضى» مُلَوِّحًا بيده إلى عشرة آلاف فدان ـ فإن هذه العبارة تعنى أن هذه أرض القبيلة والأسلاف.

ولا بد أن تنتابهم حيرة شديدة إن ظن أحد أنهم يملكون الأرض ملكية فردية، حيث لا يدركون معنى الملكية الفردية أو الخاصة، فكل فرد يستخدم ما هو متاح، سواء كان أرضًا أو أدوات، أو أسلحة، أو ملابس، أو غير ذلك، ولكن ليس له حق احتكار شىء أو إتلافه من هذه الملكية العامة.

ولعل السبب فى ضآلة الشعور بالخصوصية والفردية لدى تلك المجتمعات القديمة هو أن حياتهم متشابهة إلى حد كبير يشتركون فى كل أمورها؛ ومن ثم فنظرتهم لها تكاد تكون متماثلة إلى حد كبير[1].

* * *

ـ كان بتر الأطراف من العقوبات الشائعة فى أثيوبيا، إذ كانوا يعاقبون أسرى الحرب بقطع بعض أطرافهم.

وحتى يومنا هذا تحتم العادات الذائعة فى بعض المناطق النائية على الرجل أن يقدم لعروسه الأعضاء التناسلية لشخص يكون قد قتله حتى يصبح جديرًا بزواجها.

* * *

(١) المرجع السابق (بتصرف).

(٢) كلمة «أثيوبيا» مشتقة من اللغة اليونانية ومعناها «وجه محترق» . . . وينفر معظم الأثيوبيين من كلمة «الحبشة»، وهى التسمية القديمة لدولتهم، وهى مشتقة من أصل عربى، وتعنى البلد المختلط.

وكان هناك تقليد غريب فى فترة حكم الإمبراطور «هيلاسلاسى» لأثيوبيا(٢)، وهذا التقليد يقضى على رجال البلاط الأثيوبى أن يزحفوا عبر الحجرة حين يقتربون من الإمبراطور... ثم تغير إلى الانحناء ثلاث مرات عند الدخول فى حجرة الإمبراطور... مرة عند عتبة الحجرة، ومرة فى منتصف الطريق، والمرة الثالثة عند المثول بين يدى الإمبراطور. ويتكرر هذا التقليد عند الانصراف، على أن يسير الشخص موليًا ظهره شطر باب الخروج.

ومما هو جدير بالذكر أن الإمبراطور لم يكن يفصل بين الميزانية العامة للدولة وبين إيراداته الخاصة، إذ أنه يتولى الإنفاق بنفسه على جميع المرافق العامة.... فإذا ما قام بزيارة مكان مَّا ورأى أنه فى حاجة إلى المزيد من منشآت للعلاج أو التعليم أو غيره، فإنه يمده بنفسه بالمال اللازم حسبما يتراءى له!

* * *

وفى ألبانيا كانت لا تُقام حفلة الزواج إلا بعد أن تحمل الزوجة طفلاً.

ومن أغرب تقاليدهم القديمة أن النساء لهن الحق فى أن يصبحن رجالاً إن أقسمت المرأة أن تظل عَزَبًا، وعندئذ ترتدى ملابس الرجال وتحلق رأسها وتحمل السلاح، وإذا أنجب امرؤ إناثًا ولم ينجب ذكورًا صح له أن يختار إحداهن لتكون رجلاً، وعند موت الأب تصبح رئيسة العائلة.

هذا، ولا يسمح لأمثال هؤلاء أن يعودوا إلى الأنوثة ثانية... وإن حدث وحملت إحداهن سفاحًا قُتلت هى وطفلها وأب الطفل إن عُرف.

* * *

وفى إندونيسيا كانت توجد ـ فى الماضى ـ عادة صيد رءوس الآدميين بين قبائل «النياس» Nias، والدايك Dayak... هذا، وقد انتهت هذه العادة فى القرنين الماضيين، إلا أنها قد عادت إلى الظهور مرة أخرى فى أواخر عام ١٩٦٧ عندما ثارت قبائل «الدايك» على سكان جزيرتهم الذين ينحدرون من أصل صينى، ومن ثم بدأ الدايك فى ممارسة عادتهم القديمة باصطياد رءوس أعدائهم.

* * *

وفى قبيلة «ناجا» فى الهند... كانت كل امرأة متزوجة تعلق أجراسًا صغيرة فى أطراف ثيابها، بحيث تدق إذا تحركت، وتسكن إذا لم تتحرك، وذلك لكى يعلم زوجها متى توقفت عن العمل فيعاقبها!

وفى قبيلة «الجارو» فى الهند أيضًا.... كانت النساء تضع حلقات ذهبية فى آذانهن، إذ كانت المرأة تعتقد أن الشياطين عند وفاتها ستتسابق فى الحصول على هذه الحلقات، فتترك روحها تمر بسلام إلى الجنة.

* * *

من التقاليد التى كانت شائعة بين نساء «البندقية» فى إيطاليا ـ أن المرأة إذا شاءت أن يبقى حبها لزوجها ما بقيت على قيد الحياة، عليها أن تكتب اسمه على قطعة من الورق فى ليلة عرسها، ثم تضعها داخل «سندوتش» وتأكله... ومن ثم يصبح حبهما جارفاً مدى الحياة!

* وفى جزيرة «جاوة» كان يطلب إلى الأشخاص الذين على نية الزواج أن يقدم كل زوجين ٢٥ ذنب فأر لاستصدار رخصة الزواج، ويطلب من الأشخاص الذين يطلبون بطاقات تحقيق شخصية أن يقدموا خمسة أذناب.

أما الشخص الذى فرض هذه الرسوم العجيبة، فهو حاكم إحدى المدن القريبة من مدينة «باندونج»... وذلك فى سبيل القضاء على الفئران التى أصبحت خطرًا يهدد محصول الأرز.

ومن العادات الغريبة أيضًا فى جزيرة «جاوة» أن طقوس الزواج كانت تلزم العروس بأن تغسل قدمى زوجها وتقبلهما فى أثناء احتفالات الزواج؛ دلالة على استعدادها لطاعة زوجها وخدمته طيله حياتها.

* * *

حتى تظل عروس «النيجر» مطيعة لزوجها طيلة حياتها الزوجية لا بد لعريسها أن يحمل ليلة الزفاف عصًا رفيعة يستعملها عقب انتهاء الحفل، وقبل أن يختليا معًا، وذلك بأن يظل يضرب عروسه ضربًا مبرحًا حتى تتعهد له بالطاعة والمحافظة على بيته.

وفى جزيرة قبرص كان أطفال العائلة يقومون بتغطية العروسين بملاءة سرير بين تصفيق المدعوين ودعائهم بأن يرزقا بصبى.

وبعد انتهاء مراسم الزواج ترفع الملاءة.... ويبدأ أصدقاء العريس فى الرقص حول السرير على أنغام الموسيقى... ثم يوزعون الخبز على العريس وعروسه إيذانًا ببدء العيش بينهما.

فى الصين القديمة كانت الفتاة تتظاهر بأنها لا توافق على خطيبها، حتى ولو كانت متدلهة فى حبه، لا لشىء إلا للتواضع!

وفى الملايو يظل الخطيب يعيش فى منزل حماته وتحت رقابتها سنتين كاملتين قبل أن يتم الزواج!

وفى ولاية «كانتون» الصينية لابد أن يقدم العريس لوالد العروس قبل الخطوبة هدايا كثيرة، وبعد ذلك يقدم له هدية الخطوبة، وهى ديكان، وجَرَّتان من النبيذ، وأربعة خنازير، وعشر سمكات مملحات، وكيس ملح!

* وعند الهنود الحمر فى أمريكا الشمالية كان العريس يقدم مهر عروسه عددًا من رءوس الخيل!

* ومن عادات أهالى جزر «هاواى» القديمة أنهم كانوا يقدرون مهر المرأة بحفنة من الفئران!

* وزنوج ساحل الذهب فى غرب إفريقيا، كانوا يدفعون مهور عرائسهن من الخمور!

* وعند قبائل «الزولو» يدفع الزوج ثمن عروسه ثورين أو أكثر!

* وفى باكستان كان يدفع مهر العروسة بعد وزنها بسعر ريال لكل رطل، ويأخذ والدها قيمة الثمن الإجمالى!

* وفى العهد القديم لليهود كان الرجل يخدم والد الفتاة التى يرغب فى الزواج منها عدة سنوات، فإذا أتم خدمته فاز بيد عروسه!

* وعند قبائل الجرمان القديمة كانوا يدفعون مهور عرائسهن ذهبًا وفضة، وماشية وأرضًا.

* وجرت العادة عند رجال «الإسكيمو» أن يقوموا بشم فتاة أحلامهم قبل الإقدام على الزواج منها؛ ليتأكدوا من أنها تصلح لكى تصبح فردًا من أفراد العائلة.

* وفى بورما كانت تُطرح العروس أرضًا أثناء الاحتفال بزفافها، ويقوم رجل عجوز بثقب أذنيها، فتتألم وتتوجع، وتطلق الصرخات المدوية، ولكن

ليس من مجيب؛ لأن الفرقة الموسيقية تبدأ بالعزف بأصوات صاخبة تغطى على صرخات العروس.

* وكانت الفتاة من الهنود الحمر فى أمريكا الجنوبية تختار الفتى الذى يعجبها ويروق لها، فتصحبه إلى حلقات الرقص، وإذا زاحمتها عليه فتاة من الحى أو نافستها فى سبيل امتلاك فتاها، طلبتها إلى حومة الشجار ونازلتها فى ميدان الملاكمة، فمن غلبت أخذته من الأخرى.

* وفى بلدة «كارليا» يقيم أهل هذه البلدة مراسم الزواج قبل الفجر... وفى الحفل يظل الرجل واقفًا، فى حين تركع العروس بجانبه، وحولها المحتفلون يرتلون الأغانى الحزينة طيلة مدة الحفل.

* وفى روسيا قديماً كان الأب يضرب ابنته العروس فى رفق «بكرباج» جديد، ثم يعطى هذا «الكرباج» إلى زوجها!

* وفى اليابان كانوا يرفعون نقاب الزوجة بعد حفل الزواج ويحفظونه لتكفن به الزوجة عند موتها.... وفى أثناء الحفل يشير المحتفلون برايات حمراء.

وكانت «اليابانيات» عندما يأتى الربيع ينظمن فى هذا الفصل قصيدة شعرية، ويعلقنها فى أوراق بفروع الشجر، فيقرؤها كل من يأتى ليشاهد الزهور ثم يسجل رأيه بصراحة.

* وعند قبائل الهنود الحمر يقوم أهل العروس بتزيينها، فيدهنون جسدها كله بالألوان الصفراء والسوداء، ويدهنون رأسها بزيت السمك، ووجهها بالفحم، ثم يصحبونها بعد ذلك إلى بيت العريس.

* والمرأة - فى قبيلة «البايجا» الهندية تغطى جسمها كله بالوشم، وتترك شعرها مسترسلا ولا تقصه أبدًا.

* ومن عادات بعض قبائل إفريقيا الاستوائية أن تهدى الزوجة إلى زوجها عند الزفاف خنجرًا مسنونًا لكى يقتلها به إذا هى خانته.

* وللزواج فى روسيا عادات غريبة: منها أنه إذا كبرت البنت وترعرعت ولم تجد من يعرف لها قيمة من الشبان ذهبت إلى بلد آخر... وبعد أن تقيم فيه مدة من الزمن تعود إلى بلدها مدعية أنها تزوجت ومات زوجها وصارت أرملة، فيزيد اعتبارها فى أعين قومها الذين لا يسألونها مطلقًا عن المرحوم زوجها المزعوم؛ لأن ذكر الرجل الميت أمام أرملة أمر يتنافى مع الآداب العامة!

* وفى جزر «هايتى» تضع المرأة خلف الأُذن اليسرى زهرة عيد الربيع إنْ كانت تبحث عن صديق... وتضعها خلف الأذن اليمنى إن كانت تبحث عن عريس.

* وفى بورما تتزوج المرأة من قبائل «الطاورى» وتُطلق فى اليوم نفسه، فإن ظلت مقيمة على حب زوجها بعد خمس سنوات ألغى الطلاق وعادت إليه.

* وفى جزيرة «مونباسا» بالصومال قانون ينص على أن كل فتاة يجب أن يطلب يدها اثنان، بحيث يتقابلان فى صراع مميت، ينتهى بأن يفوز الرجل المنتصر بيد الفتاة.

* وفى جزر «كوك» تسير العروس إلى الكنيسة على بساط من الآدميين من شباب القرية، إذ حسب التقاليد فى تلك الجزر أن يستلقى شباب القرية على الأرض ووجوههم إلى أسفل، وتأتى العروس وتسير على ظهورهم إلى المكان الذى تُقام فيه الاحتفالات.

* وفى الأقاليم الريفية من جزيرة «جرينلاند» يذهب العريس إلى بيت عروسه ويجرها من شعر رأسها إلى أن يوصلها إلى الكنيسة.

- وفى الصين كانت لا تشيع الجنازة إلا بعد أن يحدد ساحر القرية اليوم والساعة المناسبين... كما يعين الموقع الذى يجب أن يستريح فيه الفقيد فى الأرض كى تتقبله الأرواح - فى العالم الآخر - قبولاً حسنًا!

- كان من عادة سكان جزيرة «بالى» بإندونيسيا أن يجرحوا أنفسهم بالخناجر، ثم يضعوا زهورًا حمراء فى الجروح، وذلك اعتقادًا منهم بأن ذلك يخيف الساحرات فلا يقتربن منهم!

- من العادات التى كانت متبعة فى بعض أنحاء اليابان أن الشاب إذا أراد الزواج من فتاة أعجبته ثبت غصن شجرة على باب منزلها، ويكتب على الغصن اسمه واسم أسرته.... فإذا أهمل وترك حتى تذبل أوراقه أدرك الشاب أن أبويها قد رفضا طلبه، أما إذا أُخذ الغصن من مكانه فإن ذلك يدل على موافقة الأسرة!

- أسماء الرجال فى بعض قبائل الهنود الحمر فى أمريكا تصل أحيانًا إلى أربعين أو خمسين حرفًا أبجديًا؛ وذلك لأنهم كانوا يضيفون حرفًا إلى أسمائهم الأصلية كل عام!

- الطماطم: عرفها الإيطاليون من حوالى ٥٠٠ عام عن طريق أمريكا، وكانوا يخافون منها: فلا تيناولونها، وكانوا يطلقون عليها اسم «بومودورو»: أى تفاح الذهب؛ لأن لونه أصفر قبل تمام النضج، إلى أن جاء أحد العلماء الإيطاليين ينادى بتناول الطماطم، وهكذا انتشر استخدامها فى الطهى فى القرى حول نابولى، وأصبحت من أشهر أنواع الخضار التى يتناولها الفقراء، وذلك لرخص ثمنها.

ـ عند قبيلة «تودا» بالهند تزحف العروس على يديها وركبتيها حتى تصل إلى عريسها، وينتهى هذا الطقس بأن يضع العريس قدمه على رأس العروس.

ـ وفى قبيلة أخرى يتضمن الاحتفال بالزواج شُربَ نوع معين من المشروبات فى جمجمة جد من الجدود!

ـ وفى «ألبانيا» يتم الزواج ولا يُعلن أو يحتفل به إلا عندما تلد الزوجة ولدًا؛ لأن هدف القبائل هناك أن تكثر من النسل وتنجب أبناء تفاخر وتعتز بهم!

ـ وفى البنجاب جرت العادة على أن يحمل الأب طفلته المولودة فى يد وخنجره فى اليد الأخرى، وينادى أمام باب الدار: هل من راغب فى زوجة صغيرة فيأخذ ابنتى هذه؟!.... فإن لم يتقدم أحد ذُبحت الطفلة المولودة وأحرقت جثتها.

وهذا هو السبب فى نقص عدد النساء عن الرجال هناك، مما دعا إلى تعدد الأزواج.

ـ وعند قبائل «الياروبا» باليابان قد يرهن الزوج زوجته عند دائنه... ومن حق هذا الدائن أن يضمها إلى مجموعة زوجاته حتى يستوفى دينه، بالرغم من أنها تستمتع بنصيب كبير من الاحترام والحب والراحة.

... كما أن الأب قد يدفع بابنته إلى بيوت الرقيق والدعارة وفاء لدينه الذى يسدده بما يدر عليه من هذا السبيل، ثم تعود لأبيها مرفوعة الرأس، وبالتالى يقبل عليها الأزواج؛ لأنها قد ضحت لإنقاذ أبيها!

- وبين قبائل «غينيا الجديدة» يودعون الضيف بالنواح، وتلطيخ الجسم بالطين. . . وفى «التبت» عندما يودع المضيف ضيفه يخرج له لسانه تحية له، فيرد الآخر بإخراج لسانه هو الآخر.

- وفى الصين كانوا عندما يرغبون فى تبادل التحية يشدون على الأيدى، ولكن أيديهم هم، بدلا من الشد على يد الصديق.

وعند سكان المحيط الهادى وأهل «الملايو» وبعض أهالى اليابان. . . يمسحون أنوفهم عند التحية بعضها ببعض، فى الوقت الذى يستنكرون فيه عادة التقبيل.

وفى بعض مناطق «منغوليا» يضعون الأنف والفم على خدِّ الصديق، ويستنشقون الهواء بشهقة تسترعى الانتباه.

وعند همج أستراليا يلصقون الوجوه بأكملها وجهًا لوجه، أما التقبيل فلا يعرفه هؤلاء.

وفى «ساحل العاج» يكشف الصديق كتفه عندما يريد وداع صديقه!

- وفى الفلبين كان إذا هَمَّ أحد الأهالى بالخروج من بيته وسمع أحدًا حوله يعطس، يسارع بالدخول إلى بيته مرة أخرى، معتقدًا بأنه إذا خرج حلت به مصيبة فى الطريق.

ويعتقدون أن المرأة الحامل إذا أمسكت فراشة وضغطت عليها ولم تمت أنجبت ذكرًا. . . أما إذا ماتت الفراشة فإن المولود يكون أنثى!

- وفى اليابان قديمًا كانت العروس ترتدى ملابس الحداد وقت العرس رمزًا إلى أنها قد تركت بيت أبيها إلى الأبد.

هذا، ولون ثياب الحداد القديم عند اليابانيين هو الأبيض!

وهناك من كان يحتفل احتفالاً دينيا بالزواج، فيذهب العروسان إلى المعبد، بحيث يجلس العروسان أحدهما أمام الآخر، وتوضع فى المعبد ثلاث قطع من الصنوبر، والقصب الهندى، والبرقوق: فالأول رمز العمر الطويل، والثانى يرمز إلى المرونة، أما الثالث فيرمز إلى النقاء والطهارة.

ويشرب العروسان ثلاث جرعات من منقوع الأرز، رمزًا للحصول على بركة الآباء.

ـ ومن عادات الزواج فى الهند قديمًا أن تُزَفَّ العروس بعد أن تُزَيَّن وتتجمل بالحلى التى تغطى جسمها كله.

وتسير فى موكب ضخم يحيط به الموسيقيون والراقصات وحملة المشاعل والمغنون... وتنفق الأسرة فى سبيل ذلك النفقات الباهظة التى تتسبب فى رهن أملاكهم، أو بيعها لزواج الأبناء.

ـ وفى مقدونيا كانت تقام سوق للزواج، حيث تقف الفتيات ويقبل الشبان لفحصهن... ويختار كل منهم الغادة التى تروقه كزوجة له!

ـ من مراسيم الزواج عند بعض العائلات فى جزيرة «قبرص» أن تنجد «مراتب» سرير الزوجين فى حفل يشهده الأقارب والأصدقاء ويضعون فى داخلها بعض النقود. ولا يصح فتح هذه «المراتب» وأخذ النقود منها إلا بعد مضى عام من الزواج!

ـ منذ فترة من الزمن كان القانون فى «روسيا» لا ينص على معاقبة مدمنى الخمر الذين يضبطون فى الشوارع فاقدى الوعى... وإنما ينقلهم رجال البوليس برفق إلى فندق فخم يقدم لهم شرابًا منبهاً، ويهيئ لهم حمامًا

ساخناً، وطعاماً شهيا، فإذا أفاقوا فى الصباح قدمت لهم قائمة طويلة بنفقات العناية بهم، وهى نفقات باهظة يعجز المدين المتلاف عن أدائها، فيضطر إلى العمل ساعات إضافية عدة أشهر حتى يسدد الدين. وقد نجحت هذه الطريقة فى خفض نسبة المدمنين!

ـ كان كثير من الرسامين فى أمريكا خلال القرن الثامن عشر ينتقلون من بلد لآخر، ومعهم مجموعة مختلفة من رسوم لأجسام رجال ونساء ينقصها رسم الوجه... فمن رغب فى صورة زيتية لنفسه، اختار الجسم الذى يريده، فيرسم له عليه الرسام صورة وجهه!

ـ كان الأوربيون خلال القرن السابع عشر لا يعرفون «الشوكة»، ولا يستعملون سوى الملعقة والسكين فى تناول الطعام... فكانوا إذا أقيم حفل، أحضر كل مدعو ملعقته من بيته، ولا يقدم صاحب الحفل سوى السكين وحده.

ـ من التقاليد التى كانت متبعة بين أفراد إحدى القبائل الغنية فى جنوب إفريقيا أن يُقام كل بضع سنوات حفل يعرض فيه أفرادها جميع مدخراتهم من ألواح الذهب، فيعين صاحب الثروة الكبرى من هذه المدخرات رئيسًا للقبيلة!

ثم يستقل الجميع زوارق صغيرة يركبونها حتى عرض البحر، فيلقون بثرواتهم فيه، ويعودون ليستأنفوا الحياة والنشاط من جديد فى جوٍّ خالٍ من القلق والكراهية والحسد التى يولدها المال والذهب!

ـ وفى ولاية «واشنطن» الأمريكية كانت الفتاة التى طال انتظارها للعريس تستطيع أن تعثر عليه بوسيلة طريفة... أن تدون رغبتها فى الزواج فى ورقة

صغيرة، ثم تضع هذه الورقة فى زجاجة تحكم إغلاقها... وتلقى بها فى تيار يمر بالولاية فى فصل الشتاء ويعرف باسم «تيار الخليج».

وكان هناك اعتقاد سائد وقتئذ فى الولاية بأن هذا التيار يقوم بعمل السحر... إنه يحمل رسالة كل فتاة إلى الشخص المناسب لها... ولا يمر وقت طويل حتى يتصل الشاب بفتاته معلنًا موافقته على الزواج منها.

وكان يتردد أن زيجات كثيرة ناجحة قد تمت فى الولاية عن طريق هذا التيار... من ذلك ما تم بين فتاة ألمانية وشاب فرنسى، وما تم بين فتاة من صقلية وضابط إنجليزى(١).

ـ وفى مقاطعة «فوتيشو» بالصين.. كانت النساء تهتم بالزينة، ولا سيما تزيين الرأس... فتحرص الفتاة على الاحتفاظ بشعرها المسترسل حتى يوم زفافها... وحينئذ تضفر شعرها ثم تكوره على قمة الرأس وتغرز فيها الإبر الطويلة الفضية من كل جهات رأسها.

ـ وفى إحدى مناطق ألمانيا قانون يفرض عقوبة على النساء الثرثارات اللاتى يضيعن الوقت فى الحديث مع الجارات ويهملن شئون البيت. والجدير بالذكر أن تاريخ هذا القانون يرجع إلى القرون الوسطى.

ـ قديمًا بلغت سخافة التشاؤم من الرقم (١٣)(٢) أن بعض الفنادق ليس فيها غرفة تحمل هذا الرقم، إنما يستعاض عنه بالرقم (١٢ أ) ويتجاهل الرقم

---

(١) من كتاب ظهر فى الولايات المتحدة الأمريكية بعنوان «قصة تيار الخليج».

(٢) يرجع فريق من الباحثين أصول خرافة التشاؤم من الرقم ١٣ إلى «العشاء الربانى» أو «العشاء الأخير» الذى تناوله الحواريون مع السيد المسيح مساء اليوم الذى سبق محاكمته وصلبه حسب العقيدة المسيحية... ولكن هناك قصة تذهب إلى أبعد من ذلك، فالأساطير «النورسية» االقديمة التى هى أقدم من المسيحية تذكر كيف أن «بالدور» قتل بعد أن حضر الإلـه «لوكى» وليمة بدون دعوة فتكامل العدد المشئوم ١٣.

(١٣) فيقفز الرقم إلى ١٤ رأسًا... وهناك شوارع ليس فيها بيت بهذا الرقم.

ولا يدرج الإيطاليون هذا الرقم فى تسلسل أرقام بطاقات «اليانصيب».

وفى بعض الألعاب الإيطالية التى تعتمد على «أوراق اللعب» نجد الورقة الثالثة عشرة تحمل جمجمة وعظمتين رمزًا للموت!!

وفى باريس كان يوجد تحذير من الزواج أو البدء فى مشروع أو رحلة أو مزاولة لوظيفة جديدة فى اليوم الثالث عشر من الشهر... ويكره البحارة الإقلاع فى مثل هذا اليوم، ويسودهم القلق عندما يقومون برحلتهم الثالثة عشرة.

- كان يسود الاعتقاد قديماً أن أسعد شهر للزواج هو «يونية» فهو شهر بخيت فى نظر القدماء،... وزيجات يونية عادة رومانية قديمة، وقد كانوا يتجنبون الزواج فى شهر «مايو» لأنه شهر إلـه الحرب، وإنما كانت تقدم فيه القرابين وتلبس ثياب الحداد.

كما ساد الاعتقاد أن من يتزوج قبل شهر أبريل يستطيع أن يطلب تخفيضًا فى ضريبة الدخل عن زوجته، وبوسعه إذ ذاك أن ينقذ نفسه من الضريبة، كما لو كان متزوجًا لعام كامل.

ومن الخرافات الطريفة الشائعة فى العراق بصورة خاصة، أن تناول أول وجبة طعام تطبخها شابة فى مقتبل عمرها يشفى من الصرع.

* * *